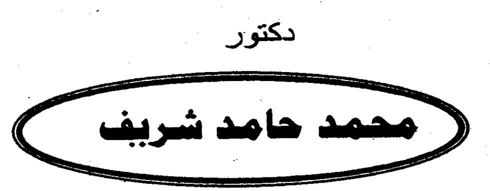
محاضرات في تاريخ الأدب الجاهلي

دكتور



محمد حامد شريف

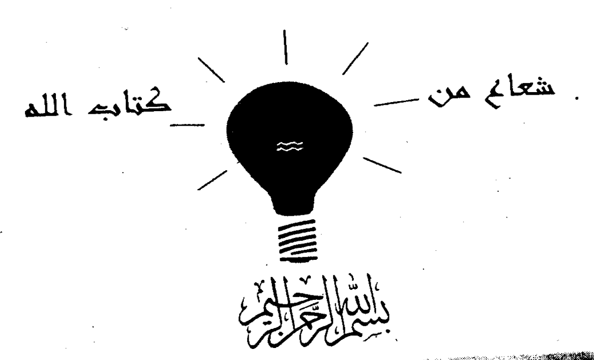
أستاذ ورئيس قسم الأدب والنقد

بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدمياط

الطبعة الثانية

١٤١٨ هـ _ ١٩٩٧م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٩٧/١٣٠٨١
I.S.B.N الترقيم الدولى
977-19-4616-1



﴿والذين إذا فعلوا فاحشةً أو ظلموا أنفسهم ذكروا
الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم
يصروا على ما فعلوا وهم يعلمون ۝ أولئك جزاؤهم
مغفرة من ربهم وجنات تجرى من تحتها الأنهار
خالدين فيها ونعم أجر العاملين[1] ۝﴾

صدق الله العظيم

---

(١) آل عمران آية ١٣٥- ١٣٦ .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

حمداً لله وصلاة وسلاماً على خير خلق الله سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الذين ارتشفوا من رضابه، واشتقُّوا من آدابه، فكانت منهم وبهم خير أمة أخرجت للناس، وبعد:

فقد نتساءل هل للأدب تاريخ؟ وماقيمته وأثره..؟!

نعم للأدب تاريخ، فهو كائن حيٌّ متطاول العمر، فلابد أن نؤرخ له، وأن نعرض لحالته من قوة أو من ضعف وأن نحيط بالمؤثرات العامة فى حياته من بيئة طبيعية، وحياة اجتماعية، وحرية أو عبودية وثقافة أو جهالة، وحرب أو سلم ... لنعرف الينابيع الأولى التى استقت منها النفوس والعقول، وأن ندرس الحركة الفكرية فى كل عصر ومدى تأثيرها فى الأدب والأدباء، وأن نعلم خصائص كل أديب وخصائص الأدب فى كل بلد أو إقليم..

ولو نظرنا إلى العصور الأدبية كلها لأدركنا آثار تلك الأدباء والعلماء ولوقفنا على تلك المؤثرات فى نتاجهم وكيف كانت صدى لمجتماتهم، وبهذا نوفر الجهد الذى كان مضطراً كل منا لأن يبذله لو انفرد بالبحث والدرس وهيهاتَ أن يتسع له وقته أو تمكنه وسائله.

إذن: من حق الأدب علينا أن ندرسه لأنه ميزة تميز بها الإنسان، ولأنه لغة الروح وترجمان القلب .. وهو بعد وسيلة بلاغ الرسل إلى العباد

والإرهاص الذى يتقدم ثورات الأمم ضد عسف طال أو خمود استطال، فتنفلت من قيودها فتثب على أنغام الأدباء وقريض الشعراء فى رمز أو تصريح(١).

وحرصنا على تاريخ أدبنا واعتزازنا به واستمدادنا منه هو حرص على تاريخنا وماهيَّتنا العربية، فالأدب صلة ماضينا بحاضرنا، وأفكار آبائنا وأجدادنا تسرى فى دمائنا وأعصابنا، واعتزاز بقوميتنا التى تُعَدُّ اللغة ومافيها من ثمار العقل والقلب من أعظم أسسها. ولولا محافظتنا على أدبنا، واعتدادنا بتاريخه لمُحيت لغتنا وتقوضت قوميتنا، وتسلطت علينا لغة أخرى، فاستعبدت عقولنا وأفكارنا، وصيَّرتنا جسماً بلا روح، وقلباً بلا عاطفة. وعبودية العقول والأفكار أشد خطراً من عبودية الأجسام والحطام، لأنها عبودية لا يُرجى لها دواء، ولا يبرأ لها داء.

***

١- راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلى د/ أحمد الحوفى ص ١٨ - ١٩ ط دار القلم بيروت.

نبذة فى العصور الأدبية

اصطلح الكاتبون فى تاريخ الأدب على أن يستعملوا كلمة « العصر الأدبى » للدلالة على المدة الممتدة من الزمن ، والتى تبدأ ببداية واضحة وتنتهى بنهاية مميزة ، وهم يبدأون العصور الأدبية بعصر الجاهلية أو عصر ماقبل الإسلام ، والمعروف منه هو نحو قرن ونصف تقريبا . . . ثم يأتى عصر صدر الإسلام وهو يبدأ بظهور الإسلام وينتهى بقيام دولة بنى أمية ، وبعض الباحثين يجعل العصر الإسلامى يمتد حتى نهاية دولة الأمويين وذلك سنة ١٣٢ هـ ليشمل صدر الإسلام وبنى أمية ، بيد أنى أميل الى فصل العهدين ، حيث أقام معاوية دولته على شىء خالف به روح الإسلام وتعاليمه ، فقد تولى الحكم بطريق الخداع والخيانة نصير نبى الإسلام وابن عمه ، ثم أقام نظام الحكم على الوراثة وهو بهذا قد تجاهل مبدأ الشورى وهو مبدأ نصت عليه الشريعة وأمرت به المسلمين ، وقد اتسم العصر الأموى بالصراعات الحزبية والتى قامت على أثر تولى معاوية الحكم والخلافات التى قامت بينه وبين الامام على سنة ٤٠ هـ ولم ينته الصراع بتولى معاوية بل ظلت كامنة حتى آن لها أن تنفجر بتولية يزيد بن معاوية والذى تولى الحكم عن أبيه وراثة ، وكان أهم هذه الأحزاب (١) :

أولا ـ الحزب الأموى الحاكم : وكان يتزعمه معاوية الذى استقر له الحكم

(١) راجع الأغانى ١٧ / ٢١٣ وما بعده .

من (٤٠ - ٦٠ هـ) ثم ابنه يزيد ثم معاوية الثانى (٦٤ هـ) ومات بعد ولايته بعدة أشهر انتقلت إلى مروان بن الحكم وظلت فى بنيه حتى سقوط الدولة ، وكان من أبرز ما يميز سياسة هذا الحزب التعصب بوجه عام فهو يتعصب للعرب على الموالى ولبنى أمية على بنى هاشم ولقد عرف الخلفاء والامراء كيف يضرمون العدوات بين البطون والعشائر ويثيرون الأحقاد ، يتخذون من ذلك وسيلة لإضعاف خصومهم ، وقد أثار تعصبهم ضد الموالى حفيظتهم وجعلهم يحقدون على العرب ، فقد بلغ من تعصب الأمويين أنهم كانوا لا يتزوجون من الموالى ولا يزوجون لهم حتى لا يختلط الدم العربى بغيره من الأجناس .

ثانياً - الحزب العلوى أو الشيعى :

عرف هذا الحزب على نحو واسع (كعقيدة) بعد مقتل الحسين فى كربلاء ، وساد فى الكوفة والعراق وخراسان أن النبوة ملك ينبغى أن يورث ولا يرثه إلا الأقربون وعلى وبنوه أقرب الناس وأحقهم بوراثته وكان أكثر سكان العراق من الموالى ، وقد وقف العلويون خلف على فى حربه ضد طلحة والزبير فى معركة الجمل كما ناصروه ضد معاوية فى معركة صفين ، وهدأت الشيعة بعد مقتل على وتنازل الحسن عن الخلافة لمعاوية ولكنهم ثاروا لسب الإمام على على المنابر فثار جماعة منهم فقبض عليهم (زياد بن أبيه) والى الكوفه وبعث بهم لمعاوية فقتل بعضهم وفيهم (حجر ابن عدى) وأطلق سراح الباقين بعد أن تبرءوا من على ... وتولى يزيد

الخلافة بعد معاوية وراثة وامتنع الحسين عن مبايعته كما امتنع ابن الزبير (عبد الله) وجماعة من المسلمين ، وأرسل أهل الكوفة الى الحسين يطلبون منه أن يأتيهم وله عليهم النصرة ، وخرج الحسين فى نحو ثمانين رجلا من آله وأهل بيته ، وبينما هو فى طريقه إلى الكوفة كان ابن زياد قد أوقع بمسلم بن عقيل بن عم الحسين الذى أرسله الحسين ليستوثق من أهل الكوفة ، فقتله يزيد وصلبه ، وتفرق عنه أهل الكوفة وخذلوه ، وأرسل يزيد جيشا بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص فلقى الحسين فى كربلاء ودارت معركة دامية غير متكافئة قتل فيها الحسين وجميع من معه الا النساء وبعض الأطفال ولم ينهض أهل الكوفة لنجـــدته وهم الذين استقدموه والعجيب أن الجيش الذى كان يقاتله كان من أهل الكوفة (١) .

وبعد مقتل الحسين هبوا يتلاومون لخذلانهم وأعلنوا التوبة فسموا بالتوابين ، وأصروا على الثأر لقتلى كربلاء فخرج جماعة بقيادة (سليمان بن صرد) ولكنهم هزموا فى عين الوردة ٦٥ هـ وقتل سليمان ، ثم خرج جماعة بقيادة (المختار الثقفى) زعيم الكيسانية ودعا لابن الحنفية فاستولى عـــلى الكوفة وهزم ابن زياد وقتله وانتقم من قتلة الحسين ولا سيما ابن أبى وقاص وشمر بن الجوشن ، ولكنه هزم وقتل ٦٧ هـ على يد المهلب قائد جيش مصعب بن الزبير وقد توزعت الشيعة إلى نحل متعددة أهمها :

الكيسانية : أتباع المختار الثقفى الذى دعا لمحمد بن الحنفية واتخذ منه إماما

---

(١) راجع العقد الفريد ج / ٤ / ٣٧٨ - ٣٨٠ .

هو المهدى المنتظر .

الزيـدية : أتباع زيد بن على بن الحسين وهم أكثر الشيعة تسامحا واعتدالا والإمام عندهم محصور فى أبناء على من فاطمة والإمام عندهم ليس معصوما .

الرافضة : وهم فرقة منشقة من الزيدية وخرجوا على زيد لعـــدم قوله بتكفير أبى بكر وعمر ، وعلى العموم فالشيعة تقصر الإمام فى أبناء على .

ثالثـاً - ومن الأحزاب الخطيرة حينئذ (الخوارج) :

وقد ظهروا عقيب مهزلة التحكيم وخرجوا على على وقالوا بكفره لأنه احتكم إلى غير الله ، وحاربهم عـلى فى معارك كثيرة أهمها معركة النهروان التى استأصل فيها كثيرا منهم ولذلك دبروا لقتل على ومعاوية وعمرو بن العاص لأنهم رؤس الفتنة فى نظرهم ونجح (عبد الرحمن بن ملجم) فى قتل على بينما فشل صاحبـاه (البرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى) فى قتل صاحبه وظلوا مصدر إزعاج لبنى أمية وسببوا (للحجاج) والىهم على العراق حرجا بالغا ولولا انقسامهم على أنفسهم لكان للتاريخ وجه آخر .

والخلافة عندهم حق لكل مسلم مادام متصفا بالعلم والعدل والزهد لا فرق بين عربى وعجمى أو حـر وعبد والخلافة شورى ، ورغم تسامحهم فى تلك المبادىء التى تعلو عـــلى التعصب للجنس فانهم بالغوا فى تكفير خصومهم والمسلمين وعدوا دارهم دار حرب قتالهم وسبى نساءهم وأخذ أموالهم ولم يستحلوا الصلاة معهم وكان أشدهم (الأزارقة) أتباع نافع الأزرق وهى أكبر الفرق وأقواهـا .

رابعاً : الزبيريون :

وهم أتباع الزبير بن العوام الذى خرج على على بعد التحكيم بيـد أنه لم يشارك فى معركة الجمل وكان ابن الزبير يشارك فى التأليب على على فيقال إنه حث خالته السيدة عائشة على الخروج إلى البصرة وحرض أباه على القتال وكان عبد الله من ذوى الطمع والدهاء وكان معاوية يخشى منه على إبنه (يزيد) وكان يحذره منه بقوله : إنه يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك مراوغة الثعلب فان أمكنته الفرصة وثب فإن هو فعلها وظفرت به فقطعه إربا .

وقد وجد عبد الله استجابة له فى مكة والمدينة ولا سيما بعد مقتل الحسين فجرد يزيد جيشا لقتاله بقيادة (مسلم بن عقبة المرى) فأوقعه بالمدينة ثم زحف إلى مكة ، ولولا موت يزيد ، ونشوب الخلاف بين الأمويين عـلى الخلافة لهزم عبد الله إلا أنه وجد الفرصة ليمتد بحصاره إلى العراق والشام ومصر واليمن فلما تولى (مروان بن الحكم) الخلافة أخـذ يستجمع الأنصار ويستجلب الأعوان من القبائل الموالية واستطاع أن يستخلص الشام ومصر من الزبيريين وجاء « عبد الملك بن مروان » فالتقى بمصعب بن الزبير فقتله ودخل الكوفة سنة ٧٢ هـ ولم يبق إلا عبد الله بن الزبير بمكة فكلف به الحجاج ابن يوسف الثقفى الذى اتجه الى مكة فحاصرها ثمانية أشهر ، وضرب الكعبة بالمنجنيق حتى احترقت ، وحتى تخلى الناس عن عبد الله فقتل سنة ٧٣ هـ وصلب وانتهت تلك الحركة .

وكان من أهم العوامل التى ساعدت على هزيمة الزبيريين مايلى :

- كانوا يرون الخلافة محصورة فى قريش فهى حق لا ينازعهم فيها منازع ، ويرى عبد الله أنه أحق الناس والقرشيين خاصة لما سبق .

- وكان عبد الله بخيلا فلم يستطع استجلاب الأنصار وتأليف القلوب حوله كما يفعل الأمويون .

- وأيضا : قد أضعفت ثورة المختار الثقفى جناح الزبيريين ، وكذلك عدم تأييد الشيعة لهم وتشكيكهم فى نوايا عبد الله ، وانصراف الخوارج عن نصرته لما كان بينهم من اختلاف فى الرأى والعقيدة .

أما العصر العباسى الأول : فهو يبدأ من قيام دولة العباسيين سنة (١٣٢ هـ) بإعلان أبى العباس السفاح عن نفسه فى خطبته على منبر الكوفة (١) وهذا العصر ينتهى باستيلاء بنى بويه على بغداد سنة ٣٣٤ هـ .

وأما العصر العباسى الثانى : فيبدأ من السنة المذكورة (٣٣٤ هـ) والتى وافقت خلافة المطيع (أبو القاسم الفضل بن المقتدر وقد خلع نفسه بنفسه فى بغداد سنة ٣٦٣ هـ) ، وينتهى هذا العصر بسقوط بغداد فى يد التتار وذلك عام ٦٥٦ هـ وهذا على أرجح الآراء .

وهناك من يجعل العصر الثانى عصرين أولهما : يبدأ سنة ٣٣٤ هـ وينتهى بانتزاع السلاجقة (الأتراك) الحكم سنة ٤٤٧ هـ ، وفى هذه المرحلة قوى شأن

(١) راجع خطبة السفاح وخطبة عمه داود بن على فى الطبرى ٦ / ٨١ - ٨٤

الشيعة ، ونضجت العلوم وكثر التأليف ، وقد عاصرت الدولة الفاطمية فى مصر والشام هذه المرحلة .

وثانيهما : يبدأ منذ تولى السلاجقة الحكم حتى سقوط بغداد فى أيدى التتار المغول سنة ٦٥٦ هـ وفى هذه المرحلة قوى مذهب أهل السنة ، وظهرت الكتب الجامعة التى يمكن أن نسميها موسوعات أو دوائر معارف ككتاب معجم الأدباء لياقوت الحموى ومعجم البلدان له أيضا ، والأغانى لأبى الفرج الأصفهانى وشرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد كما ظهر كتاب الأنساب للسمعانى ويتيمة الدهر للثعالبى والخصائص لابن جنى وغير ذلك من المؤلفات التى أثرت الحياة الأدبية فى العصر العباسى الثانى .

وقد انقسمت الدولة الاسلامية فى العصر العباسى الثانى إلى دويلات واستقلت كل منها بشئونها الداخلية وإن كان بعضها مازال يعترف اعترافا رسميا بالخليفة العباسى ، وهذا الانقسام الذى آلت إليه الدولة الإسلامية وإن كان أضعفها من الناحية السياسية فإنه أفادها من الناحية العلمية فقد جعل كل دولة تسابق الأخرى فى تشجيع العلماء والعمل على النهضة الأدبية وحث الكتاب على التأليف - كما مر - .

الدولة السامانية :

فالدولة السامانية فى تركستان وخراسان كان من أشهر ملوكها نوح بن منصور الذى أنشأ فى بخارى مكتبة كبيرة انتفع بكتبها كثير من الناس .

والدولة البويهية : فى العراق وخراسان وفارس كان أكثر وزرائها من الأدباء المشهورين كابن العميد والصاحب بن عباد ، ومن أشهر ملوكها عضد الدولة ابن بويه الذى ألف له أبو اسحاق الصابى كتاب (التاجى) فى أخبار بنى بويه وألف له أبو على الفارسى كتاب الايضاح فى النحو .

والدولة الحمدانية : فى حلب والموصل كانت قبلة الأنظار ومحاط رجال الأدب ومن أشهر رجالها سيف الدولة بن حمدان الذى غص مجلسه بكثير من العلماء والشعراء والأدباء وفى مقدمتهم المتنبى وابن خالويه النحوى وأبو فراس الحمدانى .

والدولة الاخشيدية : فى مصر ودمشق وكلمة أخشيد من ألقاب الأمراء عند قدماء الفرس وقد منح الخليفة الراضى عام ٣٢٦ هـ هذا اللقب على مؤسس هذه الدولة « محمد بن طغج » ، وتوفى الأخشيد فى آخر عام ٣٣٤ هـ - ٩٤٦م وقد خلفه اثنان من أبنائه ولكنهما لم يحكما إلا بالاسم فقط فالسلطان الحقيقى كان فى يد العبد الخصى الحبشى كافور الذى ولاه الخليفة على مصر بعد وفاة ولدى الاخشيد .

والدولة الفاطمية : فى مصر قد أنشأت داراً للكتب وأنشأت الجامع الأزهر وجعلته مدرسة تقوم على نشر المذهب الشيعى وكانت لهم عناية خاصة بالفلك .

والدولة الأيوبية : التى خلفت الدولة الفاطمية فى مصر والشام وقد عملت من جانبها على نشر مذهب أهل السنة والقضاء على مذهب الشيعة وزادت عن

السابقين فى تقريب العلماء إلى مجالسها والاغداق عليهم .

ومع اختلاف تلك الدويلات فى الجنس واللغة القومية فقد حرص الجميع على أن تكون لغة البلاد الرسمية فى التعليم والسياسة والقضاء هى العربية الفصحى ولم تجاوز آدابهم العربية طبيعتها الأصلية من ناحية البلاغة وحسن الآداء والذوق العربى السليم وإن اقتضت طبيعة الحال أن تصطبغ تلك الآداب بصبغة موضعية قومية نتيجة اختلاف البيئة وهكذا كانت الدويلات حتى سقطت بغداد فى أيدى التتار المغول سنة ٦٥٦ هـ .

عصر الدويلات أو الدول المتتابعة :

وهذا العصر انما كان نتيجة طبيعية لما سبقه من تقسيمات فى العصر السابق وقد ظلت الويلات هكذا حتى سنة ١٢٢٠ هـ وبتولى محمد على حكم مصر بدأ عصر جديد وهو :

عصر النهضة : وهو يبدأ من السنة المذكورة وبتولى محمد على حكم مصر .

والجدير بالذكر أن هذه الفواصل التى يذكرها المؤرخون بين عصور الأدب لاتعنى أبدا أن الفواصل محددة أو أن أحوال الادب تتغير بين يوم وليلة أو بين لحظة وأخرى ، وإنما هى فواصل على وجه التقريب .

فالعصور الأدبية إنما تتداخل وتتمازج ، والانسان الأديب لايستطيع ـ وهو فرد ـ أن يتغير أدبه أو ملامح كتابته بين يوم وليلة ، فمن باب أولى لا تستطيع البيئة الأدبية التى تضم بين أجنحتها العدد الكبير من الأدباء أن تتغير ملامحها

فى وقت قصير أو عقب حادث أو ماشابه ذلك .

وقد حدث المؤرخون أن الأمويين قد أساؤا المعاملة مع غير الجنس العربى كما أساؤا المعاملة مع العلويين ، ولعل هذا كان من أهم الأسباب التى قوضت حكم بنى أمية ، وأنشأت الدعوة لبنى العباس وكان فى مقدمة الداعين لهذا هو أبو مسلم الخرسانى (ناصر الموالى) كرد فعل لما اتجه إليه الأمويون من عصبية عربية ونزعة قومية ولما لاقاه هؤلاء الموالى من استخفاف وازدراء فى عصر الأمويين واستطاع العباسيون أن يسقطوا دولة الأمويين وأن يفتتحوا عهد الدولة العباسية ويمضوا بها فى طريقها خلال العصر العباسى الأول .

وقد بدأ تدخل الأتراك فى الحكم والإدارة منذ بداية العصر العباسى الأول وذلك بسوء ظن (الخليفة المعتصم) فى العرب ، الأمر الذى دعاه لأن يخرج أكثر من كان موجودا منهم فى ديوان الجنود والجيش ووضع مكانهم جنودا من المماليك الأتراك الذين أرادوا أن يضربوا العرب من ناحية والفرس كذلك من ناحية أخرى ، ونتيجة لهذا الأمر اعتز الجنود الأتراك بمكانتهم أولا ثم اغتروا بها ، فبسطوا أيديهم فى شئون الدولة يتحكمون فيها ويصرفونها حسب أهوائهم لا حسب ماتقتضى به المصلحة العامة ثانية .

وبلغ بهم الاستبداد والتحكم حتى شمل الخليفة نفسه فهم يعزلون هذا ويقيلون ذلك ثم يولون من يريدون وبالطبع يختارون من يكون طوع أمرهم أو رهن إشارتهم فنزلوا بمكانة الخلافة وهيبتها إلى الحضيض ، وصار الخليفة ألعوبة فى أيديهم حتى صدق عليه قول القائل .

وتؤخذ بأسمه الدنيـا جميعا ٭ وما من ذاك شيء فى يديه

فلم لا يهتبل هؤلاء الفرس هـذا الوضع المختـــل فى الدولة ، لـكى يمهدوا لإستعادة مجـــد فارس ، وسلطان الأكاسرة ، بأن ينشئوا دولا هنا وهناك ، كالدولة البويهية فى فارس ، والدولة السامانية فى خراسان ، وليرتقبوا يوما يهجمون فيه بمجموعهم عـــلى بغداد ، لينتزعوا السلطة من أيدى الأتراك ويتحكون فى الخلفاء كما يشاءون .

وهؤلاء العلويون الذين ينتسبون إلى الإمام على ؛ والذين مازالوا يذكرون مصرع الامام الشهيد ويذكرون كيف خرج معاوية على بيعتـه وكيف كاد له فى موقف التحكيم ، ويذكرون أنهم أحق بالخلافة وأولى بها حتى من أبناء عمومتهم العباسيين .

لقد رأى هؤلاء العلويون أن الدولة لم تعد مقصورة عـــلى سلطان هؤلاء العباسيين ، بل استأسد فيها غير العباسيين ، فلم لا ينتقل الأمر إليهم وقد خرج من أيدى أبناء العمومة ؟ أليسوا أحق به من هؤلاء الغرباء ؟ وإذا كانوا لم ينقطعوا فيما مضى عن المطالبة بحقهم فى الإمامة والخلافة فإن الفرصة الآن أمامهم ذهبية ، فليزيدوا من سعيهم نحو تحقيق هدفهم ونيـل مطالبهم . فأنشأوا إمارات لهم فى اليمن والحجاز وطبرستان على قدر ما استطاعوا ، واقبلت جماعة الفاطميين بكثرة عددهم فأنشأوا دولة كبيرة شملت عدة أقطار فى أفريقية وآسيـــة .

ولم يقتصر النزوع إلى الانفصال عن الخلافة والاستقلال بالحكم والادارة على ولاة الأقطار والأمصار والأقاليم ، والفرس والعلويين بل بلغ الأمر من ضعف العاصمة وتضعضع شأن الخلافة ؛ وتسارع العناصر غير العربية ؛ إن وجد رؤساء القبائل العربية فرصة سانحة أمامهم أيضا ، فلم لا ينتهزونها ويستقلون بما ينزلون به من بقاع وجهات ؟

الكل طامع ، والكل متطلع إلى الإمارة والظروف مساعدة على التنسيق والتفريق والفساد يلد الفساد والأطماع تحرك الأطماع ، فلتتحول الدولة إلى دول ، والخلافة إلى خلافات ، والإمارة الكبرى إلى إمرات ، والإمامة العظمى إلى إمامات .

وهكذا تفتت السلطان العريض ، وصارت الدولة العباسية فى أواخرها غيرها فى أوائلها ، صارت لفظا على غير مسمى ، إن ساعد الشكل الخارجى على إطلاقه فان بواطن الحقائق تنادى بأعلى صوت إنه لم يبق لهذا العنوان إلا رسمه ولم يبق من هذا الكتاب الضخم إلا اسمه .

وحينما كان العصر العباسى الثانى يشهد فى المشرق ما رأيناه ، كانت الدولة العربية فى الأندلس تشهد قريبا منه ، حتى رأى أمراء الأندلس أنهم ليسوا أقل شأناً من الخليفة ، فصاروا يطلقون على أنفسهم لقب الخليفة ولقب أمير المؤمنين وكأنهم يريدون أن يقولوا : وأى فرق بين ما هنا وما هناك .

لكن أمرين جليلين بقيا ، لم يتفرقا ولم يتمزقا ، بل سلم لهما جلالهما وسلطانهما

هذان الأركان هما العقيدة واللغة . فقد بقي المجتمع العربي تعلوه كلمة الإسلام وتقوده عقيدته ، وإن كثرت في بعض جوانبه انحرافات أو سيئات أو موبقات ، وكذلك بقيت هذه الدول والإمارات في المشرق والمغرب تغار على اللغة الفصحى ، وتتخذها لغة الدولة والحكم والإمارة .

وإذا كان الكثير من الإمارات التي نشأت ، أو كانت تابعة فاستقلت ، لم تدم وقتا طويلا يتهيأ معه أن يصطبغ الأدب فيها بصبغة إقليمية أو بيئية فإن بعض هذه الإمارات قد امتد به الزمن حتى أثر في الأدب ، وصبغه بصبغة خاصة تلائم ما جد أو تجدد في هذه الإمارات من نظم خاصة ، أو أوضاع متميزة تتعلق بالأمور الإدارية أو الاجتماعية أو الثقافية أو العقلية .



الفصل الأول

الأدب نشأته وتطوره

وظيفة الأدب:

يسجل الأدب مظاهر الحياة وخواطر النفوس ومشاعر المجتمع لأنه شعاع الحس المرهف، وعبير النفس الصافية، والقبس الألهى فى كل قلب والجانب الروحى من كل إنسان، وهو فى كل أمة دليل على سمو روحها، وقوة انسانيتها، وكل أمة حرمت منه تبلدت مشاعرها، وأجدب خيالها، واستبدت بها المادية التى تُلحقها بعالم الحيوان، وهو وسيلة الاستمتاع بجمال الحياة والطبيعة، لأنه مسرة النفس، ومتنفس الحزين. يهدهد آلام الحياة بأنغامه ويرسم المثل العليا إليها بأحلامه:

ولولا سبيل سنّها الشعرُ مادرى بناةُ المعالى كيف تُبنى المكارم

وكانت رسالة الأدب العربى فى كل عصر من عصوره: تجاوباً مع البيئة البدوية وغيرها من البيئات المتحضرة فكان أصدق صورة لها، وأجمل نفحة استروحت لها خواطرها: وتفاعل مع الحضارة فى ظلال العصور الإسلامية، فكان صدى لمدنياتها، وانعكاساً لثقافاتها، ومجالاً لأحلامها ووساوسها.

والأدب يصور جمال الحياة، ومباهج الطبيعة، ومشاهد الجمال، ومفاتن الحسن، ومجالس الأنس، ويجمّل ماقبح من الحياة، وينير مادلهمّ من الخطوب ويهدهد مافدح من الآلام، وينقل ذلك إلى النفوس فتستروح له الخواطر المكدودة، وتخف إليه القلوب البائسة وتحيا عليه الآمال المحتضرة، فيحيل اليأس أملاً، والوحشة أنساً، والحزن مسّرة، والضيق إنطلاقاً وانفراجاً!!

والأدب من الفنون الرفيعة التى يعبر كل منها بطريقته الخاصة عن مظاهر الحياة وخوالج النفوس، تُهز المشاعر بجماله وروعته. وهو يمتاز بالجمع بين اللحن فى الموسيقى، والفكرة فى النحت، والجمال فى الرسم، ويزيد عن هذه الفنون بالإفصاح والإبانة، والنهوض بأكثر مهام الحياة الثقافية والاجتماعية والتهذيبية.

وهو يصور مافى النفس من فكرة أو عاطفة تصويراً جميلاً، ثم ينقل هذا التصوير إلى نفوس القراء وآذان السامعين، فيؤثر فيهم، ويهز خواطرهم، ويوقظ مشاعرهم، ويعينهم على فهم الحياة، ويوجههم إلى أرفع المثل وأنبل الغايات.!!

والخلاصة: أن الأدب فن الإبانة عما فى النفس، والتعبير الجميل عن مكنون الحس، والتصوير الناطق للطبيعة، والتسجيل الصادق للحياة ومظاهر الكون ومشاهد الوجود.

الأدب فى اللغة:

الأدْب -بسكون الدال- الدعاء ومنه (المأدُبة) بضم الدال وفتحها وفى الحديث عن ابن مسعود: إن هذا القرآن مأدُبة الله فى الأرض فتعلموا من مادُبته. والمأدُبة والأدبة صنيع الدعوة أو العرس يدعى إليه الناس.

وأَدَب يأدُب أدْباً -من باب ضرب- دعا إلى الطعام، فهو آدب كما قال طرفة:

نحن فى المشتاه ندعو الجفَلَى لا ترى الآدب منا ينتقر(١)

والجمع أَدَبة ككاتب وكتبه، قال على كرم الله وجهه: أما إخواننا بنو أمية فقادة أَدَبة (وأدْب القومِ على الأمر: جمعُهم عليه، وفى الجمع دعوة. قال أبوذؤيب الهذلى:

وكيف قتالى معشراً يأدبونَكم على الحق ألا تأشبوه بباطل(٢)

والأدْب كذلك الأمر العجيب كالأدْبة.

قال الأصمعى: جاء فلان بأمر أدْب أى عجيب مدهش، أو هو العجيب كقول منظور بن حبة الأسدى يصف أزبى الناقة أى سرعتها ونشاطها: (حتى أتى أزْبيُّها بالأدْبِ) أى بالعجب.

أما الأدَب -بفتح الدال- فهو الذى يتأدب به الأديب من الناس، أو هو الظرف وحسن التناول. أو هو كل رياضة محمودة يتخرج بها الإنسان فى فضيلة من الفضائل. ويقال أدب وأرب فهو أديب أريب، وتأدبَ واستأدب والبعير المذلل أديب(٣).

متى وأين وردت كلمة أدب؟

لم ترد كلمة أدَب -بفتح الدال- فى القرآن الكريم، على الرغم من خفتها. وعلى الرغم من ورود كثير من آيه فى معناها، وشدة اتصالها بأغراضه وموضوعاته، ولم ترد كذلك فى اللغات السامية الأخرى

١- الجفلى محركة: الدعوة العامة. النقرى كجمزى الدعوة الخاصة.
٢- تأشبوه: تخلطوه.
٣- واللسان والقاموس وشرحه، مادة (أدب).

كالسريانية والعبرية التي تعدُّ من أخوات العربية، فيمايقرره الباحثون(١).

ولكنها ترددت بنصها أو مادتها في بعض مانقل إلينا من آثار الجاهلية، كما في حديث عتبة بن ربيعة مع ابنته هند والتي قالت له: إني امرأة قد ملكت أمري فلا تزوجني رجلًا حتى تعرضه علي، فقال لها: قد خطبك رجلان من قومك ولست مسمياً لك واحداً منهما حتى أصفه لك ثم قال في وصف الرجل الآخر: (يؤدب أهله ولا يؤدبونه إن اتْبعوه أسهل بهم وإن جانبوه توعر عليهم شديد الغيرة ....) وكان ممارَدَّت به قولها: (وإني لآخذه بأدب البعل مع لزوم قبتي وقلة تلفُّتي ...) قال: (ذاك أبوسفيان ابن حرب)(٢). وفي كتاب النعمان بن المنذر إلى كسرى مع وفد العرب: وقد أوفدْتُ أيها الملك رهطاً من العرب لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم.

وفي كلام علقمة بن علاثة أمام كسرى: (فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزب عنك، بل لو قسمت كل رجل منهم، وعلمت منهم ماعلمنا لوجدت له في آبائه أنداداً وأكفاء كلُهم إلى الفضل منسوب وبالشرف والسؤدد موصوف وبالرأي الفاضل والأدب معروف(٣)، وقال الأعشى:

جَرَوا على أدبٍ مني بلا نزقٍ ولا إذا شمَّرتْ حرب بأغْمار(٤).

١- الأدب الجاهلي لطه حسين ص ٢٠.
٢- الأمالي لأبي علي القالي ص١٠٤ ط/٢ القاهرة.
٣- العقد الفريد ج١.
٤- النزق: الرعونة والطيش، الأغمار واحدها الغرير الذي لم يجرّب بعد لحداثة سنه -الديوان ص٨٩١ ط بيروت.

ويقول الشاعر المخضرم سهم بن حنظلة الغنوى:

لا يمنع الناس منِّى ماأردتُ ولا   أعُطيهمو ماأرادوا حسنَ ذا أدبا

ونلاحظ أن الكلمة فى هذه النصوص مستعملة فى المعنى الخلقى من تهذيب النفس وترقيق الطبع، وتحلية الخلق، واتباع الطريقة المحمودة والعادة الحسنة وكريم الأخلاق وموروث الشمائل.

وجاء الإسلام فاطردت الكلمة فى مجراها، وترددت فى كثير من النصوص على لسان النبى ﷺ وصحابته. فقد ورد أن الرسول ﷺ كان يخاطب وفود العرب على اختلاف لهجاتهم التى لا يهْتدى إلى معرفتها بعض العرب، فيفهم عنهم ويفهمهم، حتى قال له على رضى الله عنه: يارسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم الوفود بمالا نفهم أكثره، فقال الرسول: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى وربيت فى بنى سعد»، والتأديب هنا معناه التعليم.

ونظراً لأن الكلمة لم ترد فى القرآن الكريم، ولندرة ورودها فى الأدب الجاهلى وعدم وجودها فيماعرف من اللغات السامية. كانت هذه النصوص الجاهلية موضع شك وارتياب عند كثير من اللغويين والباحثين والمستشرقين.

كما كان الحديث النبوى: «أدبنى ربى فأحسن تأديبى»، موضع التردد

وعدم الاطمئنان عند بعضهم(١).

وقد حذا هذا بهم إلى أن يلتمسوا للكلمة أصلًا بالتمحُّل أو الفرض، لأنها لم تنبع في رأيهم إلا في العصر الأموي، لهذا تعددت الآراء:

١- يرى بعضهم أنها نُقلت عن بعض العرب من غير القرشيين في العصر الإسلامي ثم ذاعت ونقلت من المعنى الخلقي إلى المعنى الاصطلاحي في العصر الأموي(٢).

٢- وهناك من يفترض أنها دخلت العربية من لغة الشومريين الذين عمروا جنوبي العراق من أقدم العصور، وأخذها عنهم الساميون الطارئون عليهم، إذ كان معنى (أديب) عندهم (إنسان) ثم نقلت عندهم من أديب إلى آدم، واحتفظت العربيةُ بالأصل الشومري واستعملته فيما يؤدي معنى الإنسانية أو الآدمية من كرم الخلال ومايتصل به(٣).

٣- ويقول بعضهم أنها أخذت من الأدْب بمعنى الدعاء إلى الطعام، لأن الأدْب يأدب الناس ويدعوهم إلى المحامد أو من الأدْب بمعنى العجب، لأن الأدْب يعجب منه لحسنه، ويعجب منه صاحبه لفضله(٤): وهذا رأي يعوزه الدليل القاطع، فضلًا عن أن المعهود عند العرب استعمال الكلمة بنصها عند استعمالها في معنى آخر، فلماذا فُتِحت الدال؟ واللغة نقل وسماع!!

١- طه حسين في الأدب الجاهلي ١٩.
٢- الأدب الجاهلي ص ٢٠.
٣- أصول الأدب للزيات ص٩ وتاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان ١٢ ج١.
٤- اللسان وشرح الكاتب للجواليقي ١٣، ١٤.

٤- ويرى الدكتور نلينو المستشرق الإيطالى أن بين الأدب والدأب اتفاقاً فى المعنى الأصلى وهو السنة العادة، فظن أن العرب جمعوا دأباً على آداب بالقلب المكانى كما جمعوا بئراً على آبار، ثم اشتقوا من هذا الجمع على توالى الحقب مفرداً جديداً هو الأدب. لكن فى رأى الأستاذ حلقة مفقودة، وهى أن جمع دأب على آداب لم يرد فى أثر، ولم ير فى معجم(١).

٥- وقد احتال الأب أنستاس الكرملى فى أن يجعل للكلمة أصلاً يونانياً، ولكنه انتهى برأيه إلى الظن والتخمين فإنه يرى أن الأدب صنعة الأديب الوارد فى اللغة اليونانية باللفظ والمعنى فمن معانى الأديب عندهم الحسَن الغناء، اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة المثير لهوى جلسائه بأنغامه الشجية، وحديثه الريق.

هذه آراء الباحثين فى تاريخ كلمة (أدب). وهى كما ترى إنما تَضرب فى مجاهل الحدس والتخمين. وليس فيها دليل قاطع أو سندٌ صحيح يدعوهم إلى الشك فيما حمل على الجاهليين من نصوص، وما نسب إلى الرسول من حديث.

ونحن مع من يتساءل: إذا كانت المسألة احتمال وظن، فما الذى يمنع احتمال صحة هذه النصوص الجاهلية؟ وهل يُدفع الاحتمالُ باحتمال؟ وينقض الظن بالظن؟ وإذا كانت ندرة هذه النصوص هى التى حملتهم

١- أصول الأدب للزيات ص٨.

على الشك فيها، فلم لا نجوّز أن تكون هذه الكلمة وردت في نصوص كثيرة أصابها ماأصاب الأدب الجاهلي من الضياع والتحريف؟ أماالقرآن الكريم: فإنه لم يستوعب ألفاظ اللغة القرشية جميعاً، وأماالحديث فإنه ليس بذى الطول الذى يلتبس لفظه على الحافظين حتى يشك فيه. فوجود الكلمة فيه دليل على وجودها في الجاهلية لأن الرسول ﷺ لم يرتجلها ارتجالاً، وإنما استعملها استعمالاً بدليل فهم الإمام عليّ لها دون سؤال أو مراجعة.

كيف نشك في هذه النصوص إذن وندفعها برأى محتمل غير قاطع، أو وجه مخترع غير ثابت؟ وإذا كان كل نص منها لا يفيد الرجحان أفلا يكون في مجموعها مايفيده إن لم يفد اليقين؟ على أن هذه النصوص ونحوها إذا سلم انتحالها تبيّن لنا على الأقل راى المنتحلين في عرب الجاهلية، وكيف كانوا يتصورون حياتهم الاجتماعية والأدبية والسياسية، وهذه الصورة تشير إلى أن معنى كلمة أدب من الناحية التهذيبية كان معروفاً قبل الإسلام، ألا يدل هذا على أن كلمة الأدب عرفت في الجاهلية لأداء هذا المعنى؟

وأخيراً فإن وجود أخواتها المشتركات معها في المادة والقريبات معها في المعنى مثل بدأ وأبد، ودأب، يدل على أن كلمة أدب -ويندر أن ترد

هذه الكلمات بدونها لخفتها- دارت معها فى الحياة العربية الجاهلية(١).

تطور كلمة أدب

فى القرن الأول الهجرى:

كانت هذه الكلمة تدل فى أول أمرها -كما رأينا- على رياضة النفس وتمرينها على مايستحسن من السيرة والخلق. وعلى اكتساب الأخلاق الكريمة، واصطناع السيرة الحميدة، ولهذا يقول الجواليقى: فى شرح أدب الكاتب: والأدب الذى كانت تعرفه العرب هو مايحسن من الأخلاق وفعل المكارم، وكذلك كانت الجاهلية، فلما كان صدر الإسلام أضيف إلى مدلولها تعليم المرء مأثر من المحامد والمعارف، وصارت تدور حول المعنى التعليمى -كما فى حديث الرسول- إلى جانب دورانها حول المعنى الخلقى والنفسى.

***

فلما كان العصر الأموى شاع استعمالها، وأخذت مشتقاتها تتعدد، ومعانيها تتمايز، وأصبحت عنواناً جديداً على التعليم الفذ والتربية الممتازة، ونشأت مهنة جديدة لجماعة من الأساتذة الممتازين الذين ينشئون الطبقة العليا وينهضون بتعليم أبناء الخلفاء والأمراء وكانوا يسمون (المؤدِّبين)، وهؤلاء يدرِّسون لتلاميذهم الشعر ومايتصل به من نسب وأيام واخبار، ونحو ذلك من المعارف التى تكوِّن الثقافة الأدبية،

١- أصول النقد الأدبى للشايب ص٣، ٥.

وهى غير المعارف التى كانت قوام الثقافة الدينية للمسلمين فى ذلك الحين وهى القرآن والحديث ومايتصل بهما من تفسير وفقه وفتاوى وعلى هذا دخل فى مدلول كلمة أدب مايلقيه المعلم (المؤدِب) إلى تلميذه من كل مايمنحه حظاً من المعرفة والثقافة الأدبية(١).

* * *

وإذن فقد صارت كلمة (أدب) فى ذلك العهد تؤدى معنيين ممتازين:

أحدهما : ذلك المعنى الخلقى التهذيبى وهو أخذ النفس بالمرانة على الفضائل وكريم الشيم، ثم التأثر بهذه المرانة لاكتساب الأخلاق الفاضلة والسيرة الحميدة، ومن هذا تسميةُ عبدالله بن المقفع كتابية الأدب الصغير والأدب الكبير، لاشتمالهما على قوانين وأصول من تمسك بها صار أديباً أى فاضلًا مؤدباً مهذباً. ومنه قول زياد فى خطبته البتراء: (وأماوالله لأؤدبنكم غير هذا الأدب أو لتستقيمن لى قناتكم)(٢)، وقول بعض الفزارين من شعراء الحماسة:

أكنيه حين أناديه لأكرمَه ... ولا ألقِبُه، والسوأةَ اللقلبَ
كذاك أدِّبتُ حتى صَارَ من خُلقِى ... أنِّى وجدتُ ملاكَ الشيمةِ الأدبَ

١- ويلاحظ أن لفظ (الأدباء) ظل يطلق على العلماء المؤدبين حتى أواخر القرن الثالث الهجرى حين استقلت العلوم، وضعفت الرواية، وغلبت العجمة ولهذا قالوا. ختم تاريخ العلماء بالمبرد وثعلب، وانفرد الشعراء والكتاب بمزية اللقب (معجم الأدباء طبعة فريد رفاعى ١٢٢ ج٥).

٢- البيان والتبيين للجاحظ ٥٨ ج٢.

- وقول سالم بن وابصة:

إذا شئتَ أن تُدعى كريماً مكرّماً ... أديباً ظريفاً عاقلا ماجداً حراً

إذا ماأتتْ من صاحبٍ لك زلة ... فكن أنتَ محتالاً لزلته عُذراً

والآخر: المعنى التعليمى القائم على رواية الشعر والنثر ومايتصل بهما من نسب وخبر ومثل ونحو ذلك من المعارف غير الشرعية، التى كان يقوم بتدريسها المؤدِّبون المعلمون. ومن ذلك قول عبدالملك بن مروان لمؤدب ولده: (أدبهم برواية شعر الأعشى)، وقول عمر بن عبدالعزيز لمؤدبه: (كيف كانت طاعتى لك وأنت تؤدبنى؟) قال: (أحسن طاعة قال: (فأطعنى الآن كما كنت أطيعك)(١).

وقد بقيت مادة الأدب تدل على هذين المعنيين منذ القرن الأول الهجرى إلى الآن مع تعديل بسيط يتناولهما ضيقاً وسعة خلال القرون التالية، حتى أثر قولهم: الأدب أدبان. أدب النفس وأدب الدرس(٢).

فى القرن الثانى:

ولما نشأت بعض العلوم العربية كاللغة والنحو والصرف فى منتصف القرن الثانى، دخل ماوضع من هذه الأصول فى مدلول الأدب، إلى أن ازدهرت الحضارة العباسية وصحبتها النهضة العلمية وقويت حركة التأليف والترجمة، تلك الحركة التى انتهت فيمابعد باستقلال هذه العلوم

١- عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠١ ج١.
٢- لسان العرب مادة أدب.

بأسمائها، باستيفاء عناصرها وقواعدها، واتساع حركة التأليف فيها.

في القرن الثالث والرابع:

حتى إذا كان القرن الثالث رأينا مادة الأدب تؤدى المعاني الآتية:

أولًا: المعنى الخاص وهو الشعر والنثر ومايتصل بهما من أخبار وأنساب وأيام العرب وأحكام نقدية ثم النثر الفني الذى جوّده الكتّاب. وظهرت بهذا المعنى كتب معروفة كالبيان والتبيين للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥هـ والشعر والشعراء لابن قتيبة ٢٧٦هـ والكامل للمبرد ٢٨٥هـ وطبقات الشعراء لمحمد ابن سلام ٢٣١هـ وغيرها ممانجد فيه الأدب الخالص مع مسائل لغوية ونحوية وآراء في النقد الأدبي ومعارف قصصية.

ثانياً: المعنى العام الذى يتناول المعارف الإنسانية، وأنواع الفنون الجميلة والرياضة ونحو ذلك من كل مايوسع الثقافة.

ثالثاً: أطلق الأدب على كل مايُكسب الشخص ظرفاً وأناقة. فأطلق الأدب على الغناء. قال ابن خلدون: وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن (الأدب) لما هو تابع للشعر، إذ الغناء إنما هو تلحينه(١).

وكان من أثر تقلب العرب في أعطاف النعيم -بماأفاء الله عليهم من الفتوحات وظهر أثر ذلك في مدن العراق والجزيرة- أن أولعوا بالمنادمة والتأنق. فأطلقوا الأدب على الأناقة في اللباس والطعام، واللباقة في الحديث والكلام، وحسن التناول والمنادمة وخدمة الملوك والأمراء،

١- عيون الأخبار لابن قتيبة ٢٠١ ج١.

والبراعة فى الصيد أو اللعب، وكل مامن شأنه تكوين الرجل المستنير، وبهذا صار لفظ الأديب يرادف لفظ الظريف، أو المثقف أو المستنير. ولهذا يقول التبريزى فى شرح الحماسة: وكان الأدب اسماً لما يفعله الإنسان فيتزيَّن به فى الناس (ويقول صاحب اللسان): الأدب الظرف وحسن التناول.

ويدلنا على أن الأدب كان يطلق على جميع ماترجم من العلوم ونقل من الألعاب والفنون ماروى عن الحسن بن سهل الوزير العباسى (ت ٢٣٦) أنه قال: الآدب عشرة، فثلاثة شهر جانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربْت عليهن. فأما العود والشطرنج ولعب الصوالج فشهر جانية، وأما الأنوشروانية(١) فالطب والهندسة والفروسية، وأماالعربية فالشعر والنسب وأيام الناس، وأماالواحدة فمقطعات الحديث والسمر ومايتلقاه الناس بينهم فى المجالس وجاء فى إحدى رسائل الجاحظ قوله: "إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين فى الحكمة ذكروا أن أصول الأدب التى يتفرع منها العلم لذوى الألباب أربعة: فمنها النجوم وأبراجها وحسابها ومنها الهندسة وماتصل بها من المساحة والوزن والتقدير ومنها الكيمياء والطب ومايتشعب من ذلك ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها" فأدخل الجاحظ فى الأدب كما ترى جميع العلوم

١- شهرجانية نسبة إلى الشهارجة أو الشهارج وهم أشراف الفرس وأنوشروانية: نسبة إلى كسرى أنوشروان ملك الفرس من ٥٣١ إلى ٥٧٩م. (زهرة الآداب ج١/١٤٢).

المسماة بالرياضية وبعض العلوم المسماة بالطبيعية فى تقسيم العلوم المنسوب إلى أرسطاليس(١).

ومما يدل على أن الأدب هو المهارة وأن الأديب هو اللبق الحسن التصرف ما أنشده أسود بن أبى كريمة:

ألا زعمتْ عفراءُ بالشام أننى ... غلامُ جوارٍ لا غلامُ حروبُ

وأنى لأهذى بالأوانس كالدُّمى ... وأنىّ بأطرافِ القَنا للعوبُ

وأنى على ماكان من عُنجُهيَّتى ... ولوثة أعرابيتى لأديبُ(٢)

وقد بقى هذا المعنى العام وزاد اتساعاً فى القرن الرابع كما سيأتى:

رابعاً: هذه العلوم الأدبية اللازمة لاستكمال ثقافة الأديب، والاستعانة بها على إنشاء الأدب وفهمه وتذوقه ونقده، كاللغة والنحو والنسب والاخبار والنقد وهى العلوم التى كانت عماد الثقافة العربية.

خامساً: أدب النفس. وقد اتسع هذا المعنى فتناول كل أسلوب مستحسن فى علم أو عمل من خلق فاضل، وسيرة محمودة، وقوانين يلزمها كل ذى حرفة أو منصب. ومن الكتب فى هذا المعنى أدب القراءة لابن قتيبة، وباب الأدب فى صحيح البخارى، وفى حماسة ابى تمام، وأدب النفس لأبى العباس السرخسى. ويستمر التأليف فى هذا النوع من أدب السلوك على توالى القرون. كأدب النديم لكشاجم المتوفى سنة

١- راجع فى أصول الأدب للزيات ص١٠:١١.
٢- الحياة العربية من الشعر الجاهلى د/ أحمد الحوفى ط بيروت ص١٦.

٣٥٩هـ. وأدب الدنيا والدين للماوردى ٤٥٠هـ. وآداب الصوفية للنيسابورى ٤٤٥هـ. وآداب البحث والمناظرة(١) الخ.

فى القرن الرابع:

وفيه كانت العلوم اللغوية قد انفصلت عن الأدب ماعدا النقد حيث كان يحاول الاستقلال والانفصال، وكان كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى مقدمة لنشاط هذا الفن ومحاولته الوجود الاستقلالى، وكتاب الموازنة للآمدى والوساطة للجرجانى، ونحو ذلك من الكتب والرسائل التى استطاع النقد بها أن يؤسس استقلاله.

فى القرن الخامس:

لم يكد ينتهى القرن الرابع ويحل الخامس، حتى تم للنقد الاستقلال على يد عبدالقاهر الجرجانى، وحيث نشأت علوم البلاغة. وبهذا أصبح الأدب يؤدى:

أولًا: المعنى الخاص، الذى وقف به عند الشعر والنثر، بعد انفصال النقد والبلاغة عنه.

ثانياً: المعنى العام، وقد بقى على سعته يتناول جميع الآثار العقلية عدا الشرعية، فقد جاء فى الرسالة السابقة من رسائل إخوان الصفا، وهى من آثار القرن الرابع: (إعلم ياأخى بأن العلوم التى يتعاطاها البشر ثلاثة أجناس منها الرياضية، ومنها الشرعية الوضعية، ومنها الفلسفية الحقيقية.

١- أصول النقد الأدبى للشايب ص٩.

فالرياضية: هى علم الآداب. وهى تسعة أنواع: أولها علم الكتابة والقراءة، ومنها علم النحو واللغة، ومنها علم الحساب والمعاملات، ومنها علم الشعر والعروض، ومنها علم السحر والعزائم والكمياء ومايشكلها، ومنها علم الحرف والصنائع، ومنها علم البيع والشراء والتجارات، ومنها السِيَر والأخبار ....).

فى القرن السادس:

وفى القرن السادس ومابعده، وقف الأدب عند الشعر والنثر، وتحدد معناه الخاص بمايجرى عليه الاستعمال اليوم، وبمايقرب من معناه فى القرن الأول، فقد أريد به مأثور الشعر والنثر.

أماالمعنى العام فقد ضاق مدلوله بعد إخوان الصفا، ولم يعد الأدب يطلق على الفنون والصناعات وجميع العلوم غير الشرعية، بل أصبح قاصراً على علوم اللغة العربية، وإن لم يعين أحد هذه العلوم حتى أواخر القرن الخامس. فلما أنشئت المدرسة النظامية ببغداد، وجعل لدراسة الأدب فيها مكان جعلوا علوم العربية ثمانية: النحو واللغة والتصريف والعروض والقوافى وصنعة الشعر وأخبار العرب وأنسابهم (ثم جاء الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ فعَرَّف علوم الأدب بأنها: علوم يحترز بها عن الخلل فى كلام العرب لفظاً وكتابة، وجعلها إثنى عشر علماً بإضافة المعانى والبيان والإملاء والإنشاء إلى ماتقدم من علوم المدرسة

النظامية(١) ثم تتابع العلماء والأدباء وهم يختلفون فى حصرها حتى ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨هـ ومازالوا يختلفون حتى عصرنا الحالى(٢).

وفى العصر الحديث:

نرى مدلول كلمة (أدب) يتسع ويضيق تبعاً لختلاف الظروف والعصور وتبعاً لمعنييها الخاص والعام، يتسع فيشمل كل ألوان المعرفة. ويضيق فيقف عند الكلام الجيد من مأثور الشعر والنثر ومايتصل به وترى كلا هذين المعنيين يتسع حيناً ويضيق حيناً كذلك. وقد لوحظ مثل هذا فى الأدب الأوربى، فإن لكلمة (لتيراتور) Litterature عند الفرنج معنيين: معنى عام ومعنى خاص، فالمعنى العام دلالتها على كل ماصنف فى أى لغة من الأبحاث العلمية والفنون الأدبية فتشمل كل ماأنتجته خواطر العلماء وقرائح الكتاب والشعراء. أماالمعنى الخاص فيراد به التعبير عن مكنون الضمائر ومشوب العواطف بأسلوب إنشائى أنيق مع الإلمام بالقواعد التى تعين على ذلك(٣).

ومن هنا نرى اختلاف الكتّاب الغربيين فى تعريف الأدب، فهذا (امرسن) الأمريكى يقول: الأدب سجل لخير الأفكار، وهو تعريف للأدب بالمعنى العام. ويقول (برك): (نريد بالأدب أفكار الأذكياء ومشاعرهم مكتوبة بأسلوب يلذ القارىء) وهو على عنايته بجمال الأداء يسمح

١- فى أصول الأدب للزيات ص١١.
٢- أصول النقد الأدبى للشايب ص١٢.
٣- الزيات ص١٢.

للنظريات العلمية أن تطرق باب الأدب. أما (سانت بيف) الناقد الفرنسي فالأدب عنده هو الأسلوب الجميل الذى يصور الحقائق الإنسانية(١) وهذا هو الأدب بالمعنى الخاص.

وإذن فلكلمة الأدب معنيان: المعنى العام وهو كل ماأنتجه العقل من أنواع المعرفة سواء أثار شعورك وأحدث فى نفسك لذة فنية أو لم يثر ولم يحدث ....

والمعنى الخاص وهو الكلام الجيد من الشعر أو النثر الذى يثير شعور القارىء أو السامع ويحدث فى نفسه لذة فنية، كاللذة التى يحسها عند سماع الغناء أو توقيع الموسيقى أو رؤية الجمال، هو التعبير الجميل عن معانى الحياة وصورها (فلابد فيه من معان تثير العواطف، وصياغة جميلة تؤدى بها أفكاره ومعانيه).

وهذا الأدب بالمعنى الخاص هو الذى نعنى بدراسته والتوفر عليه، وهو الأدب الحق الذى يتصل بالنفس، ويلذ المشاعر، ويخاطب العاطفة. أماالنظريات العلمية فحقائق مجردة لا تستثر عاطفة ولا تلذ شعوراً، لأنها تخاطب العقل وحده.

* * *

١- أصول النقد الأدبى للشايب ص١٧.

الفصل الثانى

الأدب بين التأثر والتأثير

تمهيد:

الأدب مرآة صافية يتأثر بماتتأثر به المجتمعات والبيئة من حوله فهو إذن مظهر من مظاهر الحياة الإنسانية، وتسجيل لأحداثها وأحوالها ومشاعرها وخواطرها، يخضع لما تخضع له، ويتأثر بماتتأثر به لأنه التعبير الصادق عماتضطرب به النفس من مشاعر وخواطر وأخيلة، وهذه المشاعر والخواطر والأخيلة تتأثر بعوامل الطبيعة وأحوال العيش وأنواع العقائد وأطوار المجتمع وتقلبات السياسة ونحو ذلك، فالأدب صورة إقليمية، والأديب ابن بيئته وإذن فمن واجب مؤرخ الأدب أن يعرف هذه العوامل، فهى التى تعينه على فهم الأدب وتذوقه وردِّه إلى أصوله وتفسيره، كما أن من واجب دارس الأدب أن يضيف إلى الالمام بذلك المؤثرات التى لابست حياة الأديب الشخصية، ووجهت مذهبه ولوَّنت مزاجه وتفكيره. فإذا نظرنا إلى أهم العوامل المؤثرة فى الأدب -على وجه العموم- وجدناها كالتالى(١):

أولاً: العامل السياسىِّ:

للنظام السياسى أثره فى خلق فنون من الأدب أو إزدهار بعض ألوانه، أو انحطاط بعضها. فالنظام الاستبدادى مثلًا: ينتج ألواناً من الأدب يظهر فيها التملق والنفاق والإسراف فى تمجيد أصحاب السلطان، ومن ثم

١- راجع في هذا: محاضرات فى أصول الأدب للأستاذ/ الزيات، أصول النقد الأدبى للأستاذ/ أحمد الشايب، التوجيه الأدبى د/ طه حسين.

يزدهر فن المدح، كما يظهر الأدب الرمزى الذى يضطر إليه بعض الأدباء فى تصوير الظلم والفساد، فيهربون من الصراحة التى تؤدى بهم، إلى الرمز والإبهام، أو اصطناع الحيوان لاجراء مايريدون على لسانه، على النحو الذى نراه فى كتاب (كليلة ودمنة)، أو (جنة الحيوان) أو (المعذبون فى الأرض) لطه حسين. وبعض الشعر الذى يتستر وراء موضوعات رمزية.

وفى ظلال الحرية والنهضة السياسية: تزدهر الخطابة ولاسيما الخطابة السياسية. ذلك النوع الذى تخلقه الحرية السياسية والحياة الديمقراطية والأنظمة الدستورية. كما حدث فى النهضة المصرية التى خرَّجت أمثال مصطفى كامل وسعد زغلول. وكذلك يزدهر الشعر الحماسى والوطنى ونحوهما من الشعر السياسى الذى تصطنعه الأحزاب السياسة كما كنا نرى وكما رأينا فى صدر الدولة الإسلامية. أما فى ظلال الاستبداد يخفت صوت الخطابة، ويذهب الأدب الصريح الصادق الذى يمثل الحرية الفردية والإجتماعية.

وتعمل السياسة عملها فى رواج بعض الفنون وانتشارها. ففى خلافة معاوية انتشر الهجاء المقذع فى العراق لأنه ساس الرعيّة بالتفريق واحياء العصبية ليشغل الناس عن الخصومة فى خلافته بالخصومة فى أمر جرير والفرزدق مثلا. وانتشر الغزل فى الحجاز لأنه اعتقل شباب الهاشميين فى مدنه وسلط عليهم الترف وشغلهم بالمال والفراغ.

وقد يكون ضعف السياسة قوة للأدب كما حدث من ازدهار الأدب فى

عهد ملوك الطوائف بالأندلس وبعد انصداع شمل الخلافة بعد عهد المتوكل واستقلال الولاة فى فارس ومصر والشام والمغرب بسبب المنافسة بين هؤلاء الولاة. كما قد أشرنا الى ذلك عند الحديث عن العصور الأدبية.

ثانياً: الاستعداد الفطرى:

فليس كل إنسان يتأثر بمايحيط به فيصور تأثره فى الشعر أو النثر، وإنمايستطيع ذلك من رزق صفاء الطبع، ورقة الشعور، ودقة الإحساس، وموهبة الفن الأدبى، وبعض الناس يتاح له من ذلك حظ يسير، وبعضهم يتاح له أوفر الحظ، ومنهم من جبل على تبلد الشعور، ونكد الخاطر، واستغلاق الطبع، فلا يتأثر بماحوله حتى يصور تأثره فى شعر أو نثر.

وعلى هذا النحو نرى الأمم تختلف فى استعدادها الفطرى، وتتباين فى نصيبها من هذا الحظ. وقد أتيح للأمة العربية أن تكون أقوى الأمم شاعرية، وأشعر الأمم السامية وذلك لفراغ العرب، وشدة حسهم، وتوقد قرائحهم، وصفاء سمائهم، وسكون صحرائهم وحريتهم واستقلالهم وحنينهم وهيامهم، لكثرة حلهم وترحالهم. وكذلك كان حظ الأمة اليونانية كبيراً من هذا الاستعداد الفطرى وتلك الموهبة الغريزية، فكانت أمة شاعرة. أماالأمة الرومانية فلم يتح لها غير حظ يسير لم يكن شيئاً، بجانب ماأتيح لها من مواهب أخرى هيأت لها النبوغ فى الحرب والسياسة والتشريع.

ثالثاً: البيئة والإقليم:

تختلف طبائع الناس وأمزجتهم وأحوالهم بإختلاف طبائع الأقاليم وأجوائها، فيختلف تأثيرها فى نفوس الناس وأحوالهم ونظام اجتماعهم، لأن طبيعة الإقليم هى التى تنهج لساكنه سنن المعيشة، ونظام الاجتماع، وتكون أخلاقه وطباعه، ومناظره هى التى تربى ذوق أبنائه، وتغذى خيال كتابه وشعرائه، ولقد يكون الإقليم صحراوياً، وقد يكون جبلياً، وقد يكون سهلًا، وقد يقرب من البحر أو تشقه الأنهار، وكل عامل من هذه العوامل يؤثر تأثيره الخاص فى الحياة المادية والمعنوية لمن يعيشون فى ظلاله ... فالشعر الجاهلى قد تأثر أشد التأثر بطبيعة البادية وحياة البدو، فألفاظه خشنة كجبالها، ومعانيه وحشية كأوابدها، وأساليبه متشابهة كصخورها، وأخيلته مجدبة كقفرها. وهو صورة صادقة لهذه الطبيعة، يتمثل فيه وصف الصحراء والسراب والأباعر والغزلان والكثبان والأطلال والجبال أكثر من أى شيء آخر. نقرأ لامرىء القيس مثلًا:

ترى بَعَر الآرام فى عرصاتها
وقيعانها كأنه حبُّ فلفلِ(١)

١- الآرام: الظباء البيض واحدها رئم. عرصاتها: ساحتها.

كأنى غداةَ البينِ يوم تحمّلوا

لدى سَمُرات الحيِّ ناقفُ حَنْظلِ(١)

وقوله:

وليلٍ كموجِ البحر أرخىٰ سدولَه

عليَّ بأنواعِ الهمومِ ليبتلي

فقلتُ له لمّا تمطّى بصُلْبه

وأردفَ أعجازاً وناءَ بكَلْكلِ

ويقول:

فعنَّ لنا سِربٌ كأنَّ نِعَاجَه

عذارىٰ دَوارٍ فى مُلاء مذيَّلِ(٢)

ونقرأ للنابغة:

ومهمه نازحٍ تعوى الذئابُ به

نائى المياه عن الورَّاد مقفار(٣)

جاوزته بعلنّداة منا قلة

وعر الطريق على الأحزان مضمار(٤)

١- السَمُرات: جمع سمرة: الشجرة. نقف الحنظل استخراج حبه أو شقه.

٢- عنَّ: عرض. السرب: القطيع. دوار: حجر كان أهل الجاهلية ينصبونه ويطوفون حوله تشبيهاً بالطائفين حول الكعبة إذا نأوا عن الكعبة. الملاء: جمع ملاءة والمذيل: الذى أطيل ذيله وأرخى.

٣- المهمة: الوادى الموحش.

٤- علنداة: شديدة وصفٌ للناقة. سريعة نقل القوائم. الاحزان المشى فى الحزن.

كأنما الرحل منها فوق ذى جدد

ذبُّ الرياد إلى الأشباح نظار(١)

ونقرأ للبيد فى تشبيه ناقته بالبقرة الوحشية:

أفتلك أمٌّ وحشية مسبوعة

خذلت وهادية الصوار قوامها(٢)

خنساء ضيعت الفرير فلم يرم

عرض الشقائق طوفها وبغامها(٣)

عَلَهتْ تبلّد فى نهاء صعائد

سبعاً تواماً كاملًا أيامها(٤)

فبتلك إذ رقص اللوامع بالضحى

واجتاب أردية السراب أكامها(٥)

* * *

١- ذو الجدد: ثور الوحش فيه خطوط بيض وحمر، الذب: الدفع. والرياد: الارتياد أى أنه قلق لا يستقر.

٢- مسبوعة: أكل السبع ولدها. خذلت: تأخرت عن البقر والصوار جماعة البقر وهاديتها متقدمتها التى تهديها أى أن ملاكها هادية الصوار.

٣- خنساء: قصيرة الأنف. الفرير: ولد البقرة.

٤- علهتْ: تحيرت. تبلد: تتردد وتتحير. الصعائد الأمكنة المرتفعة ونهاؤها: نهايتها.

٥- اللوامع: الآل. اجتاب: لبس.

فلما انبث العرب فى الأقاليم المتحضرة تأثرت آدابهم بها، وكان شعرهم فيها غيرَ شعرهم فى الجزيرة، بل كان شعرهم فى كل إقليم يختلف عنه فى الإقليم الآخر .... وهكذا ظل عامل الطبيعة يفعل فعله، حتى رأيناه يخالف بين الشعر فى عواصم الشرق وبينه فى الأندلس، فقد وجد شعراء العرب فى الأندلس الطبيعة المنبرجة الشاعرة من مروج مطرزة بالزهر، وجبال مؤزرة بالنبت، وأنهار تلتف كالأساور على معاصم الهضاب، وخمائل تمتد كالأهداب على العيون العذاب. هذا إلى الأمطار المتصلة، والمناظر المختلفة. فدبجوا الشعر تدبيج زهرها، وسلسلوه سلسة أنهارها، ونوعوا فيه، وجددوا فى أوزانه وقوافيه، حتى أصبحنا نقرأ مثل هذا الشعر الرقيق فى وصف هذا المنظر لابن خفاجة:

لله نهرٌ سَال في بطحاءَ ... أشهىٰ ورُوداً من لمىٰ الحسناءِ
متعطفٌ مثلَ السِّوار كأنه ... والزهر يكنَفه مجر سماءِ
وغدتْ تحفُّ به الغصونُ كأنها ... هدبٌ تحفُّ بمقلةٍ زرقاءِ

ويظهر أثر هذا العامل (أى أثر الطبيعة) بين بلد وآخر حين نرى هذا العامل وهو يخالف بين الأدب فى مصر مثلًا وبينه فى الشام والعراق، فالطبيعة المصرية مسالمة لا تزعجها الزلازل إلا ماندر ولا تهزها العواصف، ولا يهيجها البرد القارس، ولا يلذعها الحر اللافح. فجوها لا يكاد يختلف ومناظرها لا تكاد تتغير، ولهذا طبع أهلها على المحافظة والوداعة والفكاهة والاعتدال وجاء الشعر المصرى -فى عمومه- واضح

اللفظ جيد السبك، بطيء التجدد هادىء الأسلوب، يتناول الأمور فى اعتدال ورفق ولين. بينما نرى الشعر الشامى: شديد الحركة، كثير التنوع، سريع التجدد، قلق الأساليب، بسبب نشاط الحياة، وتعدد المناظر، واختلاف الصور، وتقلب الطبيعة. كما نرى الشعر العراقى: قوياً ثائراً ساخطاً متوثباً متوقد الشعور، من إسراف الطبيعة فى الحر والبرد، وغلبة الحياة البدوية أو غير ذلك من العوامل الطبيعية.

وقد أخذ عامل الطبيعة يضعف بسهولة المواصلات وانتشار المدنية، حتى أصبحنا نرى التقارب بين شعراء هذه الأقطار فى المذاهب الأدبية، والصناعة الفنية والروح والخيال، وسيزداد هذا العامل ضعفاً فى المستقبل، ولكنه سيحتفظ بتأثيره على كل حال.

رابعاً: خصائص الجنس:

لكل جنس ميوله الغريزى والطبعى فالجنس الآرى يميل إلى الاستقصاء والتفصيل والتحليل والتعمق، بينما الجنس السامى إلى التعميم والإجمال والبساطة، لذكاء قلبه، وحدة خاطره. وهكذا يتميز كل جنس بخصائصه وسماته، وهى خصائص تؤثر فى الإنتاج الأدبى وتبدو فيه بصورة واضحة. فشعر العرب يختلف عن شعر اليونان والأوروبيين فى المذهب والخيال والغرض، وشعر ابن الرومى مثلًا يختلف عن شعر ابن المعتز مع أنهما نشأ فى بلد واحد وعصر واحد. فابن الرومى يحلل ويتعمق ويستقصى كقوله فى وصف الأحدب:

قصُرت أخادعه وطال قَذاله   فكأنَّه متوقعٌ أن يُصفعا
وكأنما صُفعتْ قفاه لمرةٍ   وأحسَّ ثانيةً لها فتجمَّعا

وقوله:

لما تؤذنُ الدنيا به من صروفها   يكون بكاءُ الطفل ساعةَ يولد
وإلا فمايبكيه منها وإنها   لأرمع مماكان فيه وأرغد

بينما يعمم ابن المعتز ويجمل ويتبسط لأنه عربى أصيل وانك لتحس أثر هذا العامل حين تقرأ للنابغة الشاعر العربى الجاهلى قوله:

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تلمه   على شعثٍ، أىُّ الرجالِ المهذَّبُ؟

❋ ❋ ❋

ثم ترى هذا المعنى عند بشار بن برد، وكيف حلل فيه واستقصى وكرر وزاد في التصوير، حتى صور فى أبياتٍ ماكان يصوره النابغة فى بعض بيت، قال بشار:

إذا كنتَ فى كلِّ الأمورِ معاتباً   صديقَكَ لم تلْق الذى لا تعاتبه
فعش واحداً أوصل أخاك فإنه   مقارف ذنبٍ مرةً ومجانبه
إذ أنت لم تشرب مراراً على القذى   ظمئت وأىُّ الناس تصفو مشاربه؟
ومن ذا الذى ترضى سجاياه كلها   كفى المرءَ نبلًا أن تُعدَّ معايبه

خامساً: الحضارة والمدنية:

فالحضارة والرخاء ممايؤثر فى الذوق، ويزيد فى الصور والمناظر، وينوع فى معانى الأدب وأغراضه. فالمعانى التى تخطر للمتحضرين غير

المعانى التى تخطر لأهل البادية، والأغراض التى يقول فيها أهل الحضر غير أغراض البدويين: والألفاظ الحضرية تلائم الحياة المتحضرة رقة وعذوبة ووضوحاً وحسن استقصاء؛ ولهذا نجد الفروق واضحة بين شعر العرب قبل أن يتحضَّروا، وبعد أن تحضروا فى مصر والشام والعراق والأندلس وكذلك نرى الفرق عظيماً بين شعرهم إبان ازدهار حضارتهم وشعرهم بعد انحطاط الحضارة الإسلامية حين تغلَّب الترك والتتار. ومن هنا عاد إلى الأدب العربى رونقه ورقيه بوجه عام حين أخذت الحضارة تزدهر منذ كانت النهضة الحديثة.

ولعل من أهم مظاهر تأثير الحضارة والحياة الاجتماعية فى الأدب أن مدن الحجاز حينما زخرت بالمال، ونعمت بالفراغ. منذ خلافة عثمان ابن عفَّان -رضى الله عنه- إلى أواخر القرن الأول للهجرة، غرق أهلها فى اللهو، وعكفوا على الغناء، وشرقوا بالنعيم واستسلموا للصبابة، وانقطع شعراؤها إلى الغزل فافتنوا فيه، وتصرفوا فى معانيه: كعمر وجميل وكثيِّر.

كما كان من الشواهد أيضاً: ظهور الشعر العامى فى بغداد والأندلس فى عصر واحد، ففى بغداد ظهر (المواليا) على لسان صنائع البرامكة، وشعر (القوما) الذى ينادى به العامة فى طوافهم بالليل فى شهر رمضان. وفى الأندلس ظهر الموشح والزجل، ونبغ فيهما النوابغ. ولكن البغداديين استهجنوا أدب العامة وعزفوا عنه، بينما استحسنه الأندلسيون ونبغوا فيه! والسبب فى ذلك أن بغداد كانت ارستقراطية، لأنها موطن

الأشراف وذوى الأحساب والثراء، فكانوا يترفعون عن الشعب وأدبه، ويأنفون من مجاراة الطبقة العامة أو البرجوازية فى أدبها. أما الأندلس: فكانت ديمقراطية غنية، لم يعتز أحد فيها بالنسب لتساويهم فيه ولا بالثروة لعموم الرخاء وحسن توزيع الثروة، لذلك لم يترفع الشعراء. والأدباء فيها عن تقليد الأدب العامى وتدوينه.

سادساً: التاريخ:

وللتاريخ تأثير كبير فى الأدب، فهو مادة لابد منها لثقافة الأديب يستمد منها فيمايكتب، ويستعين بها فيمافكر. وكثيراً ماكانت أحداثه مادة الأدب وخاصة فى العصور الحديثة، حيث أصبحت موضوعاً مهماً للقصص التاريخية: كما فعل (شكسبير) فى بعض قصصه فى الأدب الإنجليزى، وكما فعل جورجى زيدان وأحمد شوقى وغيرهما فى الأدب العربى، ومن ناحية أخرى نرى بعض الكتابات التاريخية نفسها قطعة أدبية فى تاريخ الطبرى. بل إن بعض الكتب التاريخية كتب أدبية بأكملها. وهكذا يكون التاريخ من أهم العناصر التى تنشىء النثر الفنى وقد قالوا إن كتاب (هيرودوت) هو أقدم كتاب منثور رائع عرفه الأدب اليونانى.

سابعاً: العلم:

وهو لون من ألوان الحضارة له أثره وخطره فى ترقية العقل، وتقوية الشعور، وتنمية التصور، وخلق أنواع طريفة من الأدب. فإذا صرفنا النظر

عن منظومة ابن عبدربه فى التاريخ وألفية ابن مالك فى النحو، فإننا نلاحظ أن انتشار العلوم قد أحدث نوعاً من القصص الخيالية تمتزج فيها حقائق العلم بروعة الخيال وغرابة الحوادث، تحقيقاً لرأى، أو تشويقاً لعلم. كما صنع ابن الطفيل الأندلسى فى رسالة (حى بن يقظان)، فقد شرح فى هذه القصة كيف يستطيع الإنسان بعقله وحده أن يتدرج من المحسوسات البسيطة إلى أسمى النظريات العلمية، ولكنه يعجز عن إدراك أرقى الحقائق بغير وحى من الله أو هداية نبى.

وللعلوم فضل ظاهر على اللغة فى المادة والأسلوب، وأثر قوى فى ترقية النثر خاصة لأنها تكسبه القوة والدقة والوضوح.

ولم يرتق النثر فى أمة إلا بعد رقيها فى الحضارة والعلم، لأن النثر لغة العقل كما أن الشعر لغة الخيال. فالنثر العربى لم يرق إلا فى ظلال الحضارة.

هذا وقد يختلف تأثير انتشار التعليم فى الأدب باختلاف مايكون له من مدى، فانتشار العلم فى العصور القديمة كان نسبياً مقصوراً على طائفة خاصة حيث كان الأدب ارستقراطياً أو قريباً من الأرستقراطية، أما فى العصور الحديثة حين أتيح العلم للناس فقد أصبح العلم ديمقراطياً شعبياً، وأخذ الأدباء يفكرون حين ينشئون فى طبقات من الناس لم يكن يفكر فيها أسلافهم.

ثامناً: الدين:

وللدين وما يتصل به من أخلاق ومعتقدات تأثير كبير فى الأدب. فإنه مادة لموضوعات متعددة وهو الذى يؤثر فى الأخلاق والعواطف تأثيراً يتردد صداه فى مناحى الأدب. ولا بدع فالدين قوام الحياة النفسية للشعوب. ومن ثم كان أثره واضحاً فى كل مايصدر عنها من آثار مادية ومعنوية فالآثار المادية الفنية كالمعابد والمساجد والكنائس والتماثيل: أماالمعنوية فمنها هذه الأناشيد الدينية التى هى مبدأ الشعر فى كل أمة كأناشيد (رع) عند المصريين وأناشيد (أرفيه) عند اليونانيين. ومنها هذا السجع الذى كان يجرى على ألسنة الكهان فى الجاهلية، وربما كان مبدأ الشعر العربى، وكثير من الديانات قد صحبها كتاب مقدس يعدُّ مثالًا أدبياً ممتازاً فللقرآن الكريم وماسبقه من كتب مقدسة أثر كبير فى أدبنا العربى كما أوجد الدين الإسلامى الأدب الصوفى وشعر الزهد، ونهض بالخطابة الدينية التى تلقى فى محافل الصلاة العامة ومقامات الوعظ، ونحو ذلك. ممايدلنا على أن تأثير الدين فى الحياة الفنية قوى وعميق. وهو فوق ذلك يهذِّب النفس، ويرقق الشعور، ويسمو بالإنسان إلى مستوى رفيع.

تاسعاً: اتصال الشعوب:

وقد تكون الصلة بين الشعوب حربية فتصل بين الغالب والمغلوب وينتفع كل بماعند الآخر، فقد تأثر الرومان بحضارة اليونان وآدابهم لهذا السبب، كما أفاد العرب من الفرس والروم وسائر البلاد التى فتحوها

وكان من أثر اتصال الشرق بالغرب أثناء الحروب الصليبية أن تأثر الغربيون بالقصص الشعبية الخرافية فى الشرق حيث نشأ فى فرنسا مايعرف باسم (الفابليو) أى القصة الخرافية القصيرة. على أن الحروب بين الشعوب تنمى فنوناً حماسية وربما أوجدت الشعر القصصى: فالإلياذة الإغريقية تدور على حروب اليونان لأهل طروادة، والشاهنامة الفارسية تدور على تاريخ الأكاسرة ووصف الحرب بين أهل إيران وأهل طوران. وهكذا كان الشعر القصصى أو الملاحم صدى لاتصال الشعوب على أن عامل الحروب قد أثر فى النثر العربى والشعر العامى، فإن نشوب الحروب الصليبية قد اقتضى تدوين بعض القصص الحماسية كقصة عنترة وسيرة بنى هلال ونحو ذلك. كما أثر فى الشعر الفصيح الذى يصور أيام العرب ووقائعها فى الجاهلية.

أما الاتصال السلمى بين الشعوب: فيتيح لها أن تتبادل الثمار العقلية والفنية وغيرها، وتتواصل بالجوار والمصاهرة، وهكذا يأخذ بعضها من بعض، ويقلد بعضها بعضاً. فتنشأ فى الأدب فنون لم تكن معروفة. وتتطور الفنون التى كانت. وقد تضعف فنون كانت قوية الإتصال. فهذه دولة العباسيين فى بغداد ودولة الأمويين فى قرطبة كانت حضارة كل منهما نتيجة اختلاط شعوب مختلفة، لكل شعب منها خصائصه، فالتقت العقلية السامية بالعقلية الآرية. وكان لهذا اللقاح أثر فى الفكر يعلل لنا وفرة المعانى الجديدة فى شعر بشار وأبى نواس وابن الرومى وغيرهم. وأثر فى الإتجاه يظهر فى الأغراض الجديدة كالغزل بالمذكر مثلا الذى

ولّده هذا الاختلاط.

وقد اتصلت مصر والشرق العربى بأوروبا منذ القرن الماضى فتطورت الحياة الأدبية فيهما تطوراً ملموساً. وتأثر الأدب المصرى بالأدب الأوربى فى أساليبه ومذاهبه.

عاشراً: الاحتذاء والمحاكاة:

ويتبع اتصال الشعوب والأفراد تقليد واحتذاء فهو أمر فطرى فى الإنسان لا يستطيع بدونه أن يتكلم أو يتعلم، ولولا الاحتذاء لما كانت فنون الآداب، فالشعر والنثر إنمايصاغان على قواعد وأساليب خاصة، ومامراعاتهما إلا اقتداء الأديب بمن سبقه وترسم خطاه.

وللتقليد فى الآداب أثر ظاهر، فالشعر اللاتينى عاش زمناً على تقليد الشعر اليونانى، كما قلد الأوربيون فى الشعر التمثيلى وغيره من الملاحم وظهر أثر التقليد فى الأدب العربى الحديث، فظهر الشعر التمثيلى على يد شوقى وغيره من الشعراء، وظهرت الأقصوصة والقصة والرواية، وغير ذلك ماأضاف إلى فصوله الأدبية فصولاً خالدة.

والأدب الفارسى والأدب التركى قد تأثرا بالأدب العربى فقرض الفرس شعرهم بالأوزان العربية، أماالأتراك العثمانيون فإنهم حين أخذوا يدونون أشعارهم فى القرن الثامن اقتبسوا من الفرس بعض الأوزان العربية مدداً لأوزانهم القديمة.

الحادى عشر: الغناء:

هو أيضاً يذيع الأدب وينشره بين جميع الطبقات فيرتفع بأذواق العامة

وأفكارهم وأساليبهم، وقد عنى أبوالفرج الأصبهانى بهذا الأمر فجمع أشعاراً كثيرة تغنَّى بها المغنيون والمغنيات فى مجالس الخلفاء وغيرهم وكان الغناء سبباً فى اختيار أو حرص الخليفة على الجارية، كما كان سبباً فى تهذيب ألفاظ الشعر وترقيق حاشيته واختيار بعض الأوزان دون غيرها، وفى عصرنا الحاضر نسمع أشعاراً لشوقى وحافظ إبراهيم وأبى فراس الحمدانى يتغنى بها الرجال والنساء.

ولو حرص العامة على مثل هذه الأشعار فى أغانيهم بدلًا من الإسفاف والساقط واللغو والهازل من الكلام أقول لوحرص الناس على هذا لكان للغتنا العربية شأن آخر.

وهناك عوامل كثيرة تؤثر فى الأدب بعضها خاص وبعضها عام، وان كان ينبغى أن نذكر منها أيام العرب وأسواقها، وسنتحدث عنها فى فصل خاص. وكذلك النقد الذى يرشد الأدباء إلى المناهج الصالحة، هو توجيه للأدب.

ويجب ألا ننسى مجالس الأدب التى كان يعقدها أمثال عبدالملك ابن مروان ومالها من أثر كبير فى النهوض به، والمنافسة فى روايته، كما لا ننسى أثر تشجيع الأدباء وإجازتهم ممايدعو إلى الإجادة والإبداع، وغير ذلك ممايؤثر في الأدب دون شك كما فعل رسول الله ﷺ مع حسان بن ثابت وكعب بن زهير وكما فعل بعض الخلفاء مع الشعراء.

* * *

الفصل الثالث

أنواع الأدب وخصائصه

ينقسم الأدب أقساماً عدةً منها: الذاتي، والموضوعي، والإنشائي، والوصفي:

أولاً: الأدب الذاتي:

الأدب الذاتي: هو الذى يعبر فيه الأديب عن خواطره ومشاعره وآرائه وأحاسيسه وتأملاته، فالشعر الغنائى -وهو قسم التمثيلى والقصصى- من الأدب الذاتى لأن الشاعر يتغنَّى فيه بعواطفه الذاتية وخوالجه النفسية وآماله وآلامه، ومن هذا المنطلق أطلق النقاد على الشعر العربى القديم بأنه كله شعر غنائى، ونعود فنقول ليس معنى الأدب الذاتى أنه مجرد من الصبغة الموضوعية، بل معناه أن الصبغة الذاتية هى الراجحة فيه.

ثانياً: الأدب الموضوعي:

والموضوعيُّ من الأدب: هو مالا يعبِّر به الأديبَ عن عاطفته أو ميوله الخاصة ولا ينطق بلسان نفسه، وإنما يعبر به عما يجول بخواطر غيره فالأدب التمثيلى والقصصى من الأدب الموضوعي، لأن الشاعر أو الكاتب إنما يعبر فيهما عما يجول بخواطر الأشخاص الذين يتحدث عنهم، ويعبر عن آرائهم وينطق بلسانهم، فهو كالمؤرخ يسرد الحوادث التاريخية فى أسلوب بليغ دون أن يصبغ عباراته بنزعاته وميوله وآرئه الخاصة. وليس معنى هذا أنه مجرد من الصبغة الذاتية، إذ لابد من انفعال الأديب بموضوعه، ومعاناته للتجربة، غير أنَّ الصبغة الموضوعية هى الغالبةُ فيه.

ثالثاً: الأدب الإنشائي:

وهو ماتعبر به من شعر أو نثر عما تحسُّ به من الخوالج والعواطف والخواطر نحو الطبيعة، سواء أكانت هذه الطبيعة داخلية تحسها في نفسك وتجدها في قلبك؟ متمثلة في عواطفك وميولك وأهوائك، أم خارجية تراها في الجبال والبحار والسماء والنجوم والرياض والأحداث المختلفة. فإذا هزَّك منظر من مناظر الطبيعة، أو راقك مشهد من مشاهدها، أو اختلجت نفسك بعاطفة من عواطف الحب أو البغض أو الرثاء أو الازدراء. وصورت ماأحسسته وشاهدته تصويراً ملائماً للموضوع، فإن هذا التصوير الذي يتمثل في شعرك أو نثرك يسمى أدباً إنشائياً لأنك أنشأته بعد أن لم يكن، وارتجلته مقلداً به الطبيعة تلك التي تُظهر ابتئاسها وغضبها مثلًا في عصف الريح وقصف الرعد واضطراب البحر، ويتجلى ابتسامها ورضاها في ضوء الشمس وعرف الزهرة وتغريد الطائر، وأنت في هذا أيضاً قد صورت شخصيتك وعبَّرت في ذلك عن مشاعرك، ونضرب على ذلك مثلًا من قصيدة المساء لخليل مطران وفيها يقول(١):

١- ديوانه ج١ ١٤٤ - ١٤٦ ط٣ بيروت.

إنى أقمتُ على التعلّة(١) بالمنى ... فى غربةٍ قالوا: تكون دوائى

متفـــردٌ بصبــابتــى، متفـــردٌ ... بكآبتى، متفردٌ بعنائى(٢)

شاك إلى البحر اضطراب خواطرى ... فيجيبنى برياحه الهوجاء

ثاوٍ على صحر أصم وليتَ لى ... قلباً كهذى الصخرة الصمّاء

ينتابها موجٌ كموج مكارهى ... ويفتها كالسقم فى أعضائى

والبحر خفاق الجوانب ضائق ... كمداً كصدرى ساعة الإمساء

تغشى البرية كدرة وكأنها ... صعدت إلى عينى مَن أحشائى

وخواطرى تبدو تجاه نواظرى ... كلمى كدامية السحاب إزائى

والدمع من جفنى يسيل مُشعشعاً ... بسنا الشعاع الغارب المُترائى

فكأن آخر دمعة للكون قد ... مزجت بآخر أدمعى لرثائى

وكأننى آنستُ يومى زائلا ... فرأيت في المرآة كيف مسائى

وبعد: فمع هذا الخيال الإنشائى الحزين ندرك أن موضوع الأدب الإنشائى هو: الطبيعة داخلية أو خارجية.

رابعاً: الأدب الوصفى:

أمّا الأدب الوصفى فهو الذى يتناول القصيدة أو الرسالة من الأدب الإنشائى بالوصف والنقد والتقريظ، فيثنى عليها ويطربها إن رضى عنها، وينقدها ويَعيبها إن سخط عليها. فهذا النقد أو التقريظ لا يصور الطبيعة

١- أى قيل له: لعلك تكون سعيداً فى غربتك.
٢- فى هذا البيت وفى بقية الأبيات تبدو سمات الرومانسية من التغنى بالألم والاتحاد مع الطبيعة واشتراكية الشكوى ...الخ.

تصويراً مباشراً، ولا يصور تأثر صاحبه بها، وإنما يصف الكلام الذى قيل فى تصوير الطبيعة: فموضوعه إذن هو الكلام لا الطبيعة: القصيدة التى تصور البحر لا البحر نفسه.

فالأدب الوصفى إذن هو الذى نسميه نقداً، ولاشك أنه وجد بعد الأدب الإنشائى، وتستطيع أن تُدخل فيه تاريخ الأدب، إذ كان مما يعالجه هذا التاريخ الموازنة والخصائص الفنية ونحوها.

وبهذا تستطيع أن تقسم الأدب الوصفى إلى قسمين: أحدهما النقد الذى يبيِّن مايمتاز به الأدب الإنشائى من خصائص سواء أكانت محاسن أو عيوب والآخر: تاريخ الأدب، وقد عرضنا لوظيفته فى بيان أحوال الأدب وأطواره.

خامساً: عناصر الأدب ومقوماته:

لعل من أهم مقومات الأدب: الفكرة، والعاطفة، والخيال، والأسلوب.

١- الفكرة: تمثل الفكرة عنصراً هاماً من عناصر الأدب إذ أنها لُبّ التجربة التى يعتمدها الأديب وهى عماد مشاعره ودليل عاطفته وجوهر موضوعه الذى هو بصدده. وإلا فكيف نأسى ونحزن إذا لم تكن هناك حقيقة مرة هى فكرة الموت وسلطانه، وعِظَمة البلى وآثاره، وعناءُ الحياة ومهزلتها فى مرثية أبى العلاء؟ وكيف نتلظى حسرة وأسفاً إذا لم نستشعر الحقيقة فى أن الأيام تعبث بنا وتفقدنا حياتنا فلا نستردها ولا نعود إليها فى قوله:

ضحِكْنا وكانَ الضحكُ منا سفاهةً　　وحقَّ لسكانِ البسيطةِ أن يبكوا
تُحطِّمُنا الأيامُ حتَّى كأنَّنا　　زجاجٌ ولكن لا يُعاد له سَبْكُ

وهكذا لا يخلو أدب من الحقائق وإلا كان عبثاً أو سخفاً لا يليق بصاحبه أن يعدَّ من الأدباء!

٢- العاطفة: والمراد بها: التجربة الشعرية أو المعاناة التى تتشبع بها نفس الأديب فى موضوع أو مشاهدة وتؤثر فيها تأثيراً قوياً يدفعه إلى الإعراب عما يحس به ... وهى من أهم عناصر النص الأدبى التى تميزه عن النصوص العلمية وغيرها من الأخبار العادية أو الصحفية، بما تنم عن شخصية الأديب، وتصور من ذوقه ومزاجه وفكره وروحه، وبما تكسبه الأدب من صفة الخلود.

فالنص الأدبى يمتاز بتردد الناس على قراءته وحرص القارىء على الرجوع إليه ليغذى فكره وشعوره، تقرأ مثلًا مرثية أبى العلاء:

غيرُ مجدٍ فى ملَّتى واعتقادى　　نَوْحُ باكٍ ولا ترنُّم شادِ

فتثير فى نفسك عاطفة الأسى والحزن، وتنقل إليك احساس الشاعر وتأثره الذى تشبعت به نفسه ومزاجه وروحه وتفكيره ونحو ذلك من عناصر شخصيته، ثم تترك القصيدة إلى أن تدعوك الدواعى لإثارة هذه العاطفة فى نفسك بوفاة صديق مثلًا فتعود إلى مبعثها عند أبى العلاء المعرِّى فتقرأ قصيدته لتظفر مرة ثانية بهذه اللذة النفسية وهكذا دواليك:

وأماالنظريات والمسائل العلمية فإنها -على ماتحتوى من حقائق خالدة- قابلة للنسخ فى صور وأساليب أخرى، أو الإعراض عنها ونسيانها؟ كما أن الشخصية معدومة فيها وإن ظهرت فليست فى قوة الشخصية الأدبية ووضوحها.

وقد اشترط نقاد الأدب المثالىّ فى العاطفة الصدق، فالغزل المصطنع فى شعر البحترى وأبى تمام والمتنبى مثلًا حَسَن الرصف والرصف ولكنه أقلُّ من غزل جميل والعباس بن الأحنف وابن زيدون وسواهم من الشعراء المحبين، لأنه خالٍ من العاطفة الصادقة التى تمس القلب وتلذه، إذ تثير فيه شعور المحبين.

وكذلك يشترطون استواءها فى النشاط، فقد قالوا إنَّ شاعراً رثى المتوكل بقوله: (مات الخليفة أيهاالثقلان) فقالوا: جيد، نعى الخليفة إلى الجن والأنس فى نصف بيت، ثم قال: (فكأننى أفطرت فى رمضان) فضحكوا منه، لانقطاع عاطفته وعدم استوائها فى الشاعرية.

٣- الخيال: ثم يأتى دور الخيال، ولا أتصور عملًا فنياً يتجرد من الخيال فهو الأداة اللازمة لإثارة العاطفة: وإنما يمتاز بقدرته على عرض الأشياء بأشكالها وألوانها كالرسم والتصوير، ليثير العاطفة ويلهبها، وقد رأيتَ خيال المعرى فى تصويره لنا بالزجاج الذى لا يعاد له سبك. وتصوير الأيام فى صورة المحطمة العابثة. وإن شئت فأقرأ قول البحترى فى رثاء المتوكل:

ولم أنسَ وحش القصر إذ ريع سربُه   واذ ذعُرت أطلاؤه وجآذره(١)
وإذ صيح فيه بالرحيل فهُتّكتْ   على عجلٍ أستاره وستائره

إنه لا يأمر بالحزن والغضب، ولا يجلجل بفداحة الخطب وهوله، ولكنه يسلك طريق التصوير المؤثر، فيعرض علينا صوراً أليمة تثير غضبنا فنغضب كما غضب، وتهز مشاعرنا فنحزن كما حزن، وكذلك فعل المعرى فى مرثيته من عرض صور الأصوات والأجسام والقبور والنجوم وغيرها حتى أبكى الناس.

الأسلوب والعبارة:

الأسلوب هو الأداة التى تنقل مافى نفس الأديب إلى غيره ليشعر بماشعر ويحس بماأحس: فى نفسه من حقائق تسيطر عليها العاطفة ويصورها الخيال، فماالذى ينقل هذه العناصر النفسية ويذيعها؟ إنها العبارة أو (نظم الكلام)؟ والعبارة عنصر هام من عناصر الأدب بل هو أهمها فى رأى بعض النقاد، لأن القدرة على إثارة العواطف -التى هى وظيفة الأدب- إنماتعتمد اعتماداً قوياً على جمال العبارة ووفائها بحق الخيال والعاطفة والحقيقة، بحسن سبكها وتأليفها وكونها مرآة صافية أمينة لما فى نفس الأديب، تلائم موضوعه رقة وعذوبة أو ضخامة وفخامة. ويعتمد الشعر بنوع خاص على الموسيقى الداخلية التى مصدرها

١- السرب: الجماعة من الطير أو الوحش أو الإنسان. الاطلاء: جمع طلا وهو ولد الظبية ساعة يولد. الجآذر: جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية. ذعر: ريع وأخيف والمراد نساء القصر.

الألفاظ، إلى جانب موسيقى الوزن والقافية، وهى موسيقى لا يمكن تحديدها، لأنها تعتمد على الذوق الفنى الرفيع ... ولا شك فى أن الصياغة بمثابة الجسم والعاطفة بمثابة الروح، فإذا كان الجسم قوياً أضفى على الروح قوة وجمالًا.

وبعد: فهذه هى عناصر العمل الأدبى عند المحدثين(١). فالعمل الأدبى -فى إيجاز- إنما يعتمد على ركنين أساسيين، هماالقيمة الشعورية، والقيمة التعبيرية، ولابد أن يتواءم التعبير والشعور، فالأدب الحق: هو تعبير جميل عن المشاعر الإنسانية فى صورة موحية أى صورة توحى بالمعنى أو الشعور، وتدل عليه وتلائمه، وتعانقه.

اقرأ قول المتنبى:

طلبتهمو على الأمواه حتى تخوَّف أن تفتِّشه السحاب

يهز الجيش حولك جانبيه كما نفضت جناحيها العقاب

فقد امتلأت نفسه بعاطفة الهيبة والإجلال نحو ممدوحه. فأراد أن ينقل هذا الإحساس إلى نفوس السامعين بتصوير عظمته وهيبته، فاعتمد على الخيال فى تلوين الفكرة لإثارة النفوس، وإلهاب العواطف حتى تستشعر سلطانه وبأسه على الأعداء، فالسحاب يخشى أن يفتشه، وهو يمشى كالعقاب فى وسط جيشه الذى يهتز جانباه من حوله قوة وبأساً كجناحى العقاب. وأدى ذلك فى لفظ قوى ضخم يلائم العظمة والقوة

١- راجع كتاب أصول النقد الأدبى للشايب.

والإرهاب، ويوحي بها.

واقرأ قول أبي العتاهية:

أتته الخلافةُ منقادةً إليه تُجرِرُ أذيالَها
فلم تكُ تصْلُح إلا له ولم يكُ يَصْلُح إلَّا لها

لتجد الخليفة الجدير بالخلافة، وقد طلبته الخلافة وسعت إليه، تجرر أذيالها في اختيال، وتسرع إليه في انقياد. وهكذا يصل الخيال عمله في تصوير الحقائق، وتلوين الأفكار.

واقرأ للبحتري:

شواجرُ أرماح تقطِّع بينها شواجرُ أرحام ملومٌ قطوعها
إذا احتربْت يوماً ففاضت دماؤها تذكرتْ القربىً ففاضتْ دموعُها

لترى كيف استطاع أن يشعرنا بالحسرة التي استولت على نفسه من قتالٍ ينشب بين الأقارب قد يعقب الندامة والأسف. فهذا هو عنصر العاطفة، وقد أثارتها في نفوسنا تلك الصورة المحزنة لهذه الرماح المشتجرة التي تقطع الأرحام وهذه الدماء التي تريقها الحرب والدموع التي تسكبها الندامة. وهذا هو عنصر الخيال الذي يقوم على الفنون البيانية من تشبيه واستعارة ونحوهما، أما عنصر الحقيقة فهو القتال الذي وقع بين حيَّين متقاربين ... وأخيراً هذا الأسلوب الجميل الذي عرض فيه البحتري خواطره وصوَّره هذا التصوير البديع وهو العنصر الرابع.

أيضاً : تستطيع أن تتناول حقيقة مصلوب معلق فى الهواء فتتخيل فى هذه الحقيقة ماتخيله الأنبارى فى رثاء مصلوب. فتثير ماشئت من عاطفة الرثاء أو الإعجاب كما أثارها وتقول معه:

ولما ضاق بطنُ الأرض عن أن يضمَّ عُلاك من بعد الوفاة
أصاروا الجوَّ قبرك واستعاضوا عن الأكفانِ ثوبَ السافيات

خصائص الأدب:

شغلت قضية اللفظ والمعنى نقاد العرب ردحاً طويلًا، ومن خلالها عكف النقاد على خصائص أدبنا العربى ومزاياه. فاللفظ والمعنى هما عماد الأدب ووعاء الكلام عند العرب، ونستطيع أن نرجع الى ماكتبه ابن قتيبه فى مقدمة كتابه «الشعر والشعراء» عن: ضروب الشعر، لنأتى بضرب منه (حسُن لفظه وحلا فإذا أنت فتَّشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى لقول القائل[1]:

ولما قضينا من منىً كلَّ حاجة ومسَّح بالأركان مَن هو ماسح
وشُدّت على حُدْب المهارى رحالنا ولاينظر الغادى الذى هو رائح[2]
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىِّ الأباطح[3]

هذه الألفاظ كما ترى أحسن شىء مخارج ومطالع ومقاطع، وإن نظرت إلى ماتحتها من المعنى وجدته: ولما قطعنا أيام منى واستلمنا

١- قال الشريف الرضى، وتروى هذه الأبيات للمعلوك السعدى.
٢- المهارى: أى الإبل المنسوبة إلى مهرة بن حيدان حى من أحياء العرب.
٣- الأباطح: جمع ابطح وهو مسيل واسع فيه دقاق الحصى.

الأركان وعالينا إبلنا الأنضاء(١) ومضى الناس لا ينظر الغادى الرائح ابتدأنا فى الحديث وسارت المطىّ فى الأبطح، وهذا الصنف فى الشعر كثير)(٢).

ولو قرأنا ماكتبه الإمام عبدالقاهر الجرجانى عن هذه الأبيات لعرفنا إلى أى حد استطاع أن يحلل تلك الأبيات إلى عناصرها الأدبية التى حددها وسماها النقاد المحدثون فى الأمم الغربية ولعرفنا إلى أى حد شُغل النقاد بقضية اللفظ والمعنى(٣).

* * *

١- الأنضاء: الهزيلة.
٢- الشعر والشعراء لابن قتيبة ص٢٢ ط بيروت.
٣- راجع أسرار البلاغة ص١٤ - ١٧ ط المنار.

الفصل الرابع

أسواق العرب
وأثرها فى اللغة والأدب

كان العرب فى العصر الجاهلى يقيمون أسواقاً عامة للتجارة، وكانت هذه الأسواق تستمر طول العام ينتقلون من بعضها إلى بعض.

ومن أشهر أسواقهم العربية(١):

١- سوق عكاظ: وعكاظ قرية بين نخلة والطائف، وكانت تعقد فى أول ذى القعدة إلى العشرين منه، وهى أعظم أسواقهم، وقد اتخذت سوقاً بعد عام الفيل بخمس عشرة سنة أى من عام ٥٤٠م - ٧٤٦م تقريباً وظلت فى الإسلام حتى نهبها الخوارج عام ١٢٩هـ حين خرجوا بمكة مع المختار بن عوف.

٢- سوق مجنة: ومجنة موضع بمرِّ الظهران أسفل مكة على أميال منها، وكانوا ينتقلون إليها من عكاظ فيقيمون فيها إلى نهاية ذى القعدة.

٣- سوق ذى المجاز: بمنى خلف عرفة، وكانوا يقيمون فيها ثمانية أيام من ذى الحجة، ثم يقفون بعرفة فى اليوم التاسع.

* * *

وكانت لهم أسواق أخر تتوالى، مثل دومة الجندل(٢) بقرى كلب وهى فى النصف بين العراق والشام، كان ينزلها الناس أول يوم من شهر ربيع الأول، فيقيمون أسواقهم بالبيع والشراء والأخذ والعطاء، وكان يُعشِّرهم

١- راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلى د/الحوفى ٦٠-٦٢ وتاريخ آداب العرب للرافعى حـ١/٨٧-٩٠، بلوغ الأرب ج١/٤٦٤.

٢- دومة الجندل: حصن وقرى بين الشام والمدينة قرب جبلى طيئ بينها وبين دمشق سبع مراحل، وكانت منازل لكنانة من كلب.

أكيدر دومة(١) وربما غلبت على السوق كلب فيَعشرَّهم بعض رؤساء كلب، فيقوم سوقهم إلى آخر الشهر.

ثم ينتقلون إلى سوق هَجَر(٢) فى شهر ربيع الآخر، فتقوم أسواقهم، وكان يعشرهم المنذر بن ساوَى أحد بنى عبد الله بن دارم. ثم يرتحلون نحو عمان(٣)، فتقوم سوقهم بديار دبا(٤) ثم بصحار(٥) ثم يرتحلون فينزلون إرم(٦) وقرى الشِّحْر(٧) فتقوم أسواقهم أياماً. ثم يرتحلون فينزلون عدن ومَن سوقها تشترى اللطائم(٨) وأنواع الطيب ... ثم يذهبون إلى الرابية من حضرموت، ومنهم من يجوزها ويرد صنعاء، فتقوم أسواقهم بها.

ثم يرتحلون إلى عكاظ وذى المجاز فى الأشهر الحرم، فتقوم أسواقهم بها ... ثم يقفون بعرفة، ويقضون مناسكهم، ثم يتجهون إلى أوطانهم.

وهذه الأسواق كانت تقوم طول السنة، فيحضرها من قَرُب من العرب ومن بعد. وكان (بدر) موسماً من مواسمهم يجتمعون فى سوقه كل

١- صاحب دومة.
٢- مدينة هجر قاعدة البحرين، وقيل: ناحية البحرين كلها هجر قال ياقوت وهو الصواب.
٣- كورة عربية على ساحل البحر شرقى هجر.
٤- سوق بعمان.
٥- بلدة بعمان على البحر.
٦- فلاة قرب عدن.
٧- على ساحل البحر بين عدن وعمان.
٨- نوافج المسك.

عام(١). فالأسباب التى كانت تقرب بين لهجات العرب أثرت وأنتجت قبل أن تصير لقريش السيادة فى الإسلام(٢).

وكانت هذه الأسواق العربية -رغم أنها مكان للتجارة والمقايضة- ميداناً فسيحاً لتبادل الآراء، عرض الأفكار، والتشاور فى مشكلات الأمور، ومجالاً للمفاخرات والمنافرات والمحاورات، ومعرضاً لإذاعة مفاخر القبيلة وشرف الأرومة ونادياً واسعاً لإلقاء روائع الشعر، والمباهاة بالفصاحة، والمفاخرة بالبلاغة. وفيها ألقيت أشهر القصائد والمعلقات العربية، فأنشد «عمرو بن كلثوم» معلقته فى عكاظ، وكذلك فعل الأعشى الذى أنشد فيها قصيدته فى مدح المحلّق.

ولقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال هذه المحافل فى المجتمعات الأولمبية التى كانوا يقيمونها كل أربع سنوات للألعاب والرياضة البدنية كلما حجوا إلى هيكل المشترى فى أولمبية. وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم فى أثنائها على نحو مايفعل العرب فى الأشهر الحرم، فلما استوثق لهم الأمر صارت هذه المجتمعات الأولمبية أندية لإنشاد الشعر وتبادل الأفكار.

وكانت فى هذه الأسواق منابر الخطابة فى الجاهلية يقوم عليها الخطيب بخطبته فيذيع فعاله ويعدد مآثره ومآثر قومه وأيامهم عاماً بعد عام.

١- تاريخ الطبرى ٢٧٦/٢.

٢- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ص٦١ - ٦٢.

وكان النقاد والشعراء والرواة يجتمعون فى الأسواق فينشد الشعراء، وينقد النقاد ويذيع الرواة ماسمعوه فى كل مكان. وكان «النابغة الذبيانى» حكماً للشعراء بسوق عكاظ، كانت تضرب له قبة فيه، فتأتيه الشعراء ينشدونه قصائدهم فيحكم لبعضهم على الآخرين.

وكان هذا الميدان الأدبى الفسيح بما فيه من آذان مرهفة، وعيون متطلعة وأذواق حصيفة، تحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتهذيب والتنقيح وتدعوهم إلى تخيُّر الالفاظ العذبة، والأساليب الجميلة، والمعانى الرائعة قصداً إلى الوضوح والإفهام والإمتاع، ومن ورائهم الرواة يذيعون هذا الأدب المختار فى البلاد، وينشرونه فى القبائل، ويروونه فى كل مكان للسامعين.

وذلك هو الأثر الأدبى الكبير لهذه الأسواق، فوق أثرها الخطير فى توحيد العقائد والأخلاق والعادات، والنهوض الحثيث بالمجتمع العربى والسير به فى طريق الوحدة التى بلغها بعد ظهور الإسلام ونبيه الكريم.

* * *

وللأسواق عمل لغوى خطير، فقد كانت سبباً فى التقريب بين لغات العرب ولهجاتهم، فقد كانت تنزل بها شتى القبائل العربية على اختلافها، من قحطانيين وعدنانيين، كما كان ملك الحيرة يبعث تجارته إليها ويأتيها التجار من مصر والشام والعراق.

فكان هذا الاجتماع الكبير وسيلة من وسائل التفاهم العقلي والتقارب بين اللغات واللهجات العربية، واختيار القبائل بعضها من بعض، وكانت الأذواق المرهفة في هذه الأسواق تعمل عملها في النقد اللغوى، فتأخذ كل قبيلة من لغة الأخرى، ماخف على النطق، وعذب في الألسنة وظهرت فصاحتهم في مختلف الألفاظ والأساليب.

وكان القرشيون خاصة من بين قبائل العرب وبتأثير اجتماعات الحج والأسواق والحروب، أكثر القبائل ميلا إلى النقد اللغوى فاقتبسوا من لهجات القبائل أعذبها، ومن ألفاظهم أسهلها وأرقها وأفصحها، وأخذوا يضيفون ذلك إلى لغتهم فزادت ثروة اللغة العدنانية القرشية. وقلدت القبائل الأخرى قريشاً فى ذلك، وأخذت عنها محاكية لها فى لغتها وذلك لمكانة قريش وإشرافها على هذه الأسواق، مما حدا بالشعراء الذين يريدون لشعرهم الذيوع أن يتحروا لهجتها المختارة الذائعة فى إذاعة محامد قبائلهم وأمجادهم، فكان لذلك آثاره البعيدة فى تهذيب اللغة العربية وتوحيدها وجمعها فى لغة مختارة هى لغة قريش أفصح القبائل العربية، والتى نزل بها القرآن الكريم.

وعمل الأسواق فى توحيد الألسنة والتقريب بين اللهجات وتهذيب اللغة العربية كان ذا أثر بعيد فى نمو اللغة العربية ونهضتها وانتقالها من طور اللهجات المتباينة واللغات المتنافرة المتناكرة إلى طور جديد، مهد

للوحدة اللغوية بين قبائل العرب، التى نزل القرآن الكريم مؤيداً لها ومذيعاً للغة قريش فى كل مكان.

* * *

ونتنقل بعد ذلك إلى الحديث فى إيجاز عن سوق عكاظ وأثرها فى اللغة والأدب، توضيحاً لأثر الأسواق الجاهلية، وزيادة فى معارفنا عن أسرار الاجتماع الجاهلى، لأن هذه السوق كانت تمتاز عن غيرها بأن جميع القبائل كانت تقصدها.

كانت سوق عكاظ ميداناً للتجارة وفداء الأسرى، والمفاوضة فى الرأى وتبادل الأفكار، كما كانت ميداناً للمنافرة والمفاخرة وإنشاد القصائد، وكان بها فى الجاهلية منابر يقوم عليها الخطباء، فيقف أشراف القبائل مفاخرين بمناقبهم ومآثر قومهم، كما كانت معرضاً للبلاغة ومدرسة بدوية يلقى فيها الشعر والخطب، ويُنقد ذلك كله ويهذّب، ففيها «خطب قسّ بن ساعده خطبته التى سمعها رسول الله ﷺ، ورواها، ذلك أن وفد بكر ابن وائل قدموا على رسول الله ﷺ، فلما فرغ من حوائجهم قال: هل فيكم أحد يعرف قسّ بن ساعده الأيادى؟ قالوا: كلنا نعرفه. قال: فما فعل؟ قالوا: هلك. فقال رسول الله ﷺ: كأنى به على جمل أحمر بعكاظ قائماً يقول: أيها الناس اجتمعوا واستمعوا، وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ماهو آتٍ آت، إنّ فى السماء لخبراً، وإن فى الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، وبحار تموج، وتجارة

تروج، وليل داج، وسماء ذات أبراج، أقسم قسٌ حقاً لئن كان فى الأرض رضا ليكونن بعده سخط، وأن الله عزَّت قدرته ديناً هو أحب إليكم من دينكم الذى أنتم عليه، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضُوا فأقاموا أم تُركوا فناموا؟ ثم أنشد أبوبكر رضى الله عنه شعراً حفظه له وهو:

فى الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارداً ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها ... يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضى إلىَّ ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أنِّى لا محا ... لة حيث صار القوم صائر(١)»

وفى سوق عكاظ أيضاً: أنشد عمرو بن كلثوم معلقته، ويقال إن المعلقات أنشدت فيها، كما أنشد فيها الأعشى مدحته المحبرة فى المحلق، وممن ألقى فيها مدائحه حسان كما كانت الخنساء تلقى فيه مراثيها وتعاظم بمصيبتها. وقد سبق أن قلنا: إن النابغة كانت تضرب له قبة حمراء فى سوق عكاظ ويجتمع عليه الشعراء فيتحاكمون إليه:

أتاه الأعشى يوماً فأنشده، ثم أتاه حسان، فقال: لولا أن أبابصير أنشدنى آنفاً، لقلت: إنك أشعر الجن والإنس، قال حسان: والله لأنا أشعر منك ومن أبيك وجدك، فغضب النابغة على يده، وقال: ياابن أخى أنت لا تحسن أن تقول:

١- الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٦٠.

فانك كالليل الذى هو مدركى　　وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

ثم أتته الخنساء فأنشدته:

قذى بعينك أم بالعين عوار　　أم أقفرت إذ خلت من أهلها الدار(١)

فلما بلغت قولها:

وإن صخراً لتأتم الهداة به　　كأنه علم فى رأسه نار

قال: مارأيت ذا مثانة أشعر منك.

ويروى أنه قال لها: لو أن أبابصير سبقك لقلت: إنك أشعر من بالسوق، ويروى أنه قال لحسان حين بلغ قوله من قصيدته:

لنا الجفنات الغر يلْمعن بالضحى　　وأسيافُنا يقطرن من نجده دماً

ولدنا بنى العنقاء وابنى محرق　　فأكرم بنا خالا وأكرم بنا ابنما

قللت جفانك ولو قلت: الجفان لكانت أكثر، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك، وقلت يلمعن بالضحى، ولو قلت يبرقن بالدجى لكان أبلغ، لأن الضيف بالليل أكثر طروقاً(٢).

وكذلك قصدت هند بنت عتبة بن ربيعة هذه السوق حين قُتل أهلُها فى بدر، وقرنت جملها بجمل الخنساء، وأخذت كل منهما تعاظم الأخرى بمصابها وتساجل فى الشعر لوعة بلوعة، ورثاءً برثاء!!

١- العوار والعائر كل ماأعل العين أوالرمد والقذى.
٢- الأغانى ج٨ ص١٩٤، ١٩٥ والجَفَنات القِصاع الكبيرة.

وكان على سوق عكاظ رئيس يشرف على الموسم ويقضى بين المتخاصمين، ومن الرؤساء عامر بن الظرب العدوانى، واستمرت تلك الحكومة على هيئتها فى الإسلام وكان محمد بن سفيان بن مجاشع قاضياً لها، وكان أبوه يقضى فيها فى الجاهلية، وقد قصدها الرسول الأعظم يبث فيها دعوته وبقيت حتى نهبها الخوارج عام ١٢٩هـ كما ذكر.

* * *

هكذا كان للأسواق أثر خطير فى تهذيب اللغة وتوحيد اللهجات، ونهضة الأدب وتجويده، ونشر الشعر وترديده، كما كانت نواة لنشأة النقد الأدبى ومهداً لنموه، على نحو مارأينا فى عكاظ التى كان يقصدها المفاخر بالنسب والحسب، والمتبجح بالفصاحة واللسن، والمحزون الذى يجد فيها متنفساً للواعجه إلى غير ذلك من الأعراض الاجتماعية والاقتصادية.

وقد عرض الأستاذ (ليونارد كنج) فى كتابه: تاريخ هارمزورث العالمى لسوق عكاظ وبيَّن أثرها فقال:

«وفى أيام ماقبل الإسلام على بعد يوم فقط من مكة كان يقام السوق والمجتمع السنوى العظيم: سوق عكاظ، نسبة إلى السهل الذى كان يقام فيه، كان يأتيه الناس من جميع الطبقات من كل فج فى الجزيرة، ويستمر شهر ذى القعدة الذى كان يسبق شهر الحج فى الجاهلية كما يسبقه فى الإسلام، فيه كانت المسابقات بين الخيل، والألعاب وتناشد الأشعار،

وجميع أنواع الملاهي تروّح على الناس عناء الأعمال التجارية فى سوق عام يكاد فى شموله واتساعه يكون معرضاً قومياً، وفيه أيضاً كان الرؤساء من عرب الشمال ينظرون بينهم فى أمهات الأمور من حرب وسلم، وحلف وتعاهد، وثأر وتقاض، فكان أولاد نزار -كما كانت العرب المستعربة تحب أن تدعى- يجتمعون فى نوع من منتدى عام لا يقل عراقة فى القدم عن منتدى طيبة، وإن كان أثره مادام قائماً أكبر فى بلاد العرب كلها مما يمكن أن يكون قد أتيح لمنتدى طيبة فى قديم اليونان، وكان لرؤساء قريش المقام الأول فى ذلك المجتمع، لقربه من ديارهم ولما كان لهم من ثروة وشجاعة وحسن خطاب(١)».

وبعد، فقد كانت هذه الأسواق على مقربة من مكة، والعرب جميعاً يدينون لقريش بسيادة دينية كما قدمنا، فهم يحاكون لهجتها، ويتأثرون منطقها، وقريش أيضاً تنتقى من لهجاتهم أفصحها، ومن كلماتهم أعذبها.

فليس فيها شئ من معيب اللهجات، سلمت لغتهم من «لخلخانيَّة الفرات»، و«عنعنة تميم»، و«كشكشة ربيعة»، و«كسكسة بكر وهوازن»، و«غمغمة قضاعة»، و«طمطمانية حِمير»، و«تضجُّع قيس»، و«عجرفية

١- النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى ٢١٠-٢١١.

ضبة"، و"تلتلة بهراء"[١].

وبذلك كله بلغت اللغة درجةً من الرقى والوحدة أعدَّتها لأن ينزل القرآن الكريم بأسمى لهجاتها وهى لهجة قريش، فتمت به الوحدة اللغوية، ومازال القرآن الكريم هو الحفيظ على هذه الوحدة والدرء لهذه اللغة، يصونها من أن تمحوها النوازل، أو تتشعب منها لهجات مختلفات تقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويجف[٢].

* * *

١- لخلخانية الفرات أو العراق: لهجة لأعراب الشجر وعمان باليمن يحذفون بعض الحروف اللينة كقولهم مشاء الله يريدون ماشاء الله، والظاهر أن بعضهم نزلوا بشط الفرات بعد الإسلام. الكسكسة: لهجة لبنى بكرِ ابن وائل أو ربيعة ومضر أو تميم يلحقون بعد كاف الخطاب للمذكر أو مكانها سينا. الغمغمة: الكلام المبهم. الطمطمانية: لهجة حِمير يبدلون لام التعريف ميما مثل أمصيام فى الصيام.

٢- راجع الحياة العربية من الشعر الجاهلى د. الحوفى ص٦٣-٦٤.

الفصل الخامس

مصادر الشعر الجاهلى

(أ) روايته:

(ب) تدوينه:

(أ) روايته:

تولى الشعراء بأنفسهم مَهمَّة رواية الشعر فى العصر الجاهلى، فكان منهم من اتخذها وسيلة لصقل موهبته، وتفتح شاعريته، فأخذ يحفظ ويروى لشاعر كبير أو أكثر، كما أخذ زهير عن أوس بن حجر، وكما أخذ كعب بن زهير والحطيئة عن زهير. وكان منهم من أخذ على نفسه برواية أشعار الشعراء من قبيلته، اعتزازاً بنسبته إليها وقرابته منها، كما قالوا: إن الأعشى كان راوية لخاله المسيب بن على.

ومن الشعراء من زهد فى اصطناع الرواية رغبة فى التلمذة على شعراء أكبر منهم، ولا صلة بقبيلة تحملهم على التغنى بالشعر المصور لأمجادها، وإنما يجمعهم سلوك واحد فى الحياة، أو مذهب يلتقون عليه، فيحفظ بعضهم لبعض، ويروى بعضهم عن بعض، كالشعراء الصعاليك والفرسان.

وإلى جانب هؤلاء جميعاً كان أفراد كل قبيلة من غير الشعراء يهتمون برواية شعر شعرائها، ويرددونه فى كل مكان، باعتباره ممثلا لمفاخرها ومناقبها، ومسجلًا لمثالب أعدائها، وإلى مثل هذا يشير بعض الشعراء وهو يعيِّر بنى تغلب لكثرة تردادها لمعلقة عمرو بن كلثوم، بقوله:

ألهىٰ بنى تغلبٍ عن كلِّ مكرُمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم!

بل كان هناك رواة لا يختصون بقبيلة ولا بشاعر، إنما كانوا يتناقلون الشعر من كل شاعر، ومن كل قبيلة، ويملأون به محافلهم ومجالسهم

وأسواقهم، باعتباره سجلا عاماً للأخبار والأنساب والمآثر والوقائع، ولم يكن لهم شاغل سواه. ولهذا يقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه: كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصحَّ منه(١).

❋ ❋ ❋

واطَّرد سير الرواية فى **عصر صدر الإسلام**، فلم يعق مجراه عائق، إذ كان الرسول ﷺ كثيراً مايستنشد الصحابة الشعر، ولو كان شعر أعدائه كأمية بن أبى الصلت، كما يقول الشريد بن سويد الثقفى: استنشدنى النبى ﷺ شعر أمية، فأنشدته وهو يقول: هيه هيه، حتى بلغتْ مائة قافية(٢)، وكذلك كان الصحابة يتناشدون أشعار الجاهلية وأخبارها، قال جابر بن سمرة: جالست رسول الله ﷺ أكثر من مائة مرة، فكان أصحابه يتناشدون الأشعار بالمسجد وأشياء من أمر الجاهلية، فربما تبسم رسول الله ﷺ(٣)، وكان أبوبكر -رضى الله عنه- نسَّابة راوية للشعر الجاهلى، وكثيراً ماكان يتمثل به فى خطبه، وكان عمر لا يكاد يعرض له أمر إلا أنشد فيه بيت شعر كما يقول ابن سلام!

ثم كان هناك مايدفع إلى الاهتمام بالرواية، كتدوين الدواوين فى عهد عمر، حيث أقتضى هذا التدوين معرفة الأنساب لأهميتها فى رواتب الجند الفاتحين وفى مراكز القبائل بالمدن الجديدة، وكان النسّابون من أمثال

١- طبقات الشعراء لابن سلام ص٢٢.
٢- راجع ابن سعد وخزانة الأدب والمزهر.
٣- طبقات ابن سعد.

عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل، يستشهدون بالشعر فى تحديد الأنساب.

ومنذ اشتعال الحرب بين على ومعاوية حتى نهاية العصر الأموى، والعصبيات القبلية تدفع كل قبيلة إلى العناية برواية شعرها الجاهلى، لتردَّ به على خصومها، بما يسجله من مآثرها ومفاخرها ومثالب أعدائها، فكان ذلك أيضاً من عوامل العناية برواية الشعر الجاهلى حتى عصر التدوين(١).

* * *

وفى العصر الأموى: توفرت للرواية أسباب الرعاية والعناية، وأتيح لهذا التراث الجاهلى من يتلقفه ويحفظه، فقد كان الملوك والخلفاء من أمثال معاوية وعبد الملك بن مروان يُعنون أشدَّ العناية بالشعر والشعراء، حتى كانوا يسألون وفود القبائل عن بعض شعرائها، وقد يرصدون الجوائز لمن يدلهم على صاحب بيت أو قصيدة، وقد يختلفون فى بيت من الشعر فيكتبون فيه البريد إلى العراق، ويسألون العلماء عن حقيقته وصحته.

ثم إنهم كانوا يتخذون لأبنائهم المؤدِّبين الذين يعلمونهم أشعار الجاهلية وأيامها وأخبارها، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل فى تطور

١- راجع (العصر الجاهلى) للدكتور شوقى ضيف.

مدلول كلمة (أدب)[١].

وكانت هناك طائفة (القصّاصين) تعظ الناس فى المساجد، وهؤلاء كثيراً ماكانوا يروون للناس فى ثنايا مواعظهم الأشعار الجاهلية التى تتصل بقصصهم.

ولم يكن ثمة شاعر مبرّز فى هذا العصر إلا وهو يروى للجاهليين، فقد عُنى الشعراء برواية الشعر القديم، حتى أخذ العلماء عنهم الكثير، ومنهم ذوالرّمة والفرزدق وجرير ورؤبة[٢].

كما نشأت فى هذا العصر طائفة أخرى من الرواة، لم تكن من الشعراء، ولا قصدت إلى تعلّم الشعر، إنما كان همها ترويج الشعر ونشره وإذاعته فى الناس، وكان منهم من يختص برواية شعر عصره، ومنهم من يتخصص فى رواية الشعر الجاهلى.

❁ ❁ ❁

فلما كان العصر العباسى نشأ من العرب والموالى وممن يعرف القراءة وغيرهم، رواة تخصصوا فيها، واحتشدوا لها، واهتموا بها، حتى أصبحت عملا أساسياً لهؤلاء الرواة، وقد ساعد على الاهتمام بها الاعتماد على الشعر الجاهلى والاستشهاد به فى تفسير ألفاظ القرآن الكريم، وفى وضع قواعد العربية وجمع ألفاظها.

١- للجاحظ فى البيان والتبيين فصل طويل يحصى فيه أسماء هؤلاء المؤدبين.
٢- مصادر الشعر الجاهلى لناصر الدين الأسد/٩.

وكان هؤلاء الرواة فى جملتهم يمثلون مدرستين كبيرتين هما : مدرسة البصرة وإمامهم فيها أبو عمرو بن العلاء، ومدرسة الكوفة، وعلى رأسها حماد الراوية، ولكن البصرة كانت أوثق روايةً من الكوفة التى اشتهرت بالوضع والانتحال، حتى تضخمت رواياتها، ودخلها الكثير من المصنوع. يقول أبوالطيب اللغوى: "والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة، ولكنَّ أكثره مصنوع ومنسوب إلى من لم يقله، وذلك بيِّن فى دواوينهم[1]".

ورواه البصرة والكوفة على العموم تختلف مراتبه من حيث الجرح والتعديل تبعاً للأمانة فى الرواية أو عدم الدقة والتحرى فيها .

ومن أشهر هؤلاء الرواة:

١- أبوعمرو بن العلاء، وهو رأس رواة البصرة (٧٠-١٥٤هـ)، وهو من أعلام المدرسة النحوية، وأحد القراء السبعة، وكان ثقة حجة أميناً تقياً صالحاً، كما كان أعلم الناس بالغريب والعربيَّة والقرآن والشعر، وربما اكتسبت البصرة به سمعتها فى صحة الرواية وأمانتها!

٢- حماد الراوية (٩٥-١٥٦هـ) وهو رأس الرواة بالكوفة، وكان من الموالى شاعِراً يحسن صوغ الشعر، كما كان أعلم الناس بكلام العرب، وأعرفهم بمذاهب الشعراء وطرائقهم فى التعبير، إلا أنه كان فاسقاً، فاسد المرؤة ماجناً زنديقاً، استغل موهبته هذه فى انتحال

١- مراتب النحويين ص٧٤.

الشعر ووضعه على لسان الجاهليين، وقيل إنه كان يحفظ لكل حرف من حروف الهجاء مائة قصيدة وقد ساعده ذلك على معرفة مذاهب الشعراء الذين ينطقهم بما لم يقولوا. يقول ابن سلام فى طبقاته: كان أول من جمع أشعار العرب حماد الراوية، وكان غير موثوق به، كان ينحل شعر الرجل غيره، وينحله غير شعره، ويزيد فى الأشعار(١).

ويقول المفضل الضبى: قد سلط على الشعر من حماد ماأفسده، فلا يصلح أبداً، إنه رجل عالم بلغات العرب وأشعارها ومذاهب الشعراء ومعانيهم فلا يزال يقول الشعر يشبه به مذهب رجل، ويدخله فى شعره، ويُحمل ذلك عنه فى الآفاق ...(٢).

٣- خلف الأحمر (١١٥-١٨٠هـ) وهو من رواة البصرة المشهورين، من الموالى، وهو مثل حماد بالكوفة، إجادة لنظم الشعر، ومعرفة بمذاهب الشعراء، ومع أن ابن سلام يشهد له بقوله: كان أفرس الناس بيت شعر، وأصدقهم لساناً(٣)، إلا أن كثيراً من الرواة الثقات اتهموه اتهام حماد. قال الأصمعى: إنه وضع على شعراء عبد القيس شعراً كثيراً، وعلى غيرهم(٤)، وقال المبرد: «لم ير أحد قط أعلم بالشعر والشعراء منه، وكان به يضرب المثل فى عمل الشعر، وكان يعمل على ألسنة الناس،

١- طبقات الشعراء: ٤٠.
٢- الأغانى ٨٩/٦ ومعجم الأدباء ٢٦٥/١٠.
٣- طبقات الشعراء: ٢١.
٤- مراتب النحويين: ٤٧.

فيشبه كل شعر يقوله بشعر الذى يضعه عليه .. ثم نسك فخرج إلى أهل الكوفة فعرَّفهم الأشعار التى قد أدخلها فى أشعار الناس. فقالوا: كنت عندنا فى ذلك الوقت أوثق منك الساعة، فبقى ذلك فى دواوينهم(١)».

وقد شهد هو على نفسه فزعم أنه كان يعطى حماداً المنحول فيقبله منه ويرويه(٢). ويقال: إنه وضع لامية العرب على الشنفرى.

٤- ومن الرواة الوضَّاعين: برزخ العروضى، وجناد، ومحمد بن السائب الكلبى وابنه هشام.

٥- ومن الرواة الثقات: الأصمعى (١٢٢-٢١٥هـ) بالبصرة، وقد شهد له معاصروه بسعة علمه بالجاهلية وأشعارها، ووثقوه وعدلوه. يقول ابن جنى: «وهذا الأصمعى هو الرواة والنقلة، وإليه محط الأعباء والثقلة(٣)». وقال عن أبى الطيب اللغوى: «لا يُفتى إلا فيما أجمع عليه العلماء، ولا يجوِّز إلا أفصح اللغات(٤)» كذلك: المفضل بن محمد الضبى المتوفى سنة ١٧٠هـ، وهو من رواة الكوفة، وكان عالماً دقيقاً بشعر الجاهلية، ويُجمع رواة البصرة والكوفة علي توثيقه. وهو صاحب كتاب (المفضليات) من أشعار الجاهليين.

١- مراتب النحويين: ٤٧.
٢- الأغانى ٩٢/٦.
٣- الخصائص: ٣١١/٣.
٤- مراتب النحويين: ٤٩.

٦- وهناك غيرُ هؤلاء: أبوزيد الأنصارى صاحب كتاب (جمهرة أشعار العرب) وقد توفى سنة ٢١٥هـ، وأبوعبيدة البصرى صاحب (النقائض) و(وإعجاز القرآن) توفى سنة ٢٠٩هـ، ثم أبوعمرو الشيبانى المتوفى (٢١٣هـ) وابن الأعرابى م/ (٢٣١هـ) وابن السكيت م/ (٢٤٤هـ)، ثم أبوسعيد الحسن بن الحسين السكرى الذى انتهت إليه الرواية بالبصرة، وجمع كثيراً من دواوين الجاهليين، وتوفى سنة ٢٧٥هـ، ثم ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هـ(١).

* * *

١- راجع فى هذا الفصل كتاب (العصر الجاهلى) لشوقى ضيف.

(ب) تدوين الشعر الجاهلي:

عرف العرب الكتابة في العصر الجاهلي، واستخدموها في بعض أغراضهم كما تشهد بذلك النقوش التاريخية، والآثار الشعرية التي خلّفها الجاهليون. فالمرقش الأكبر يقول:

الدار قفرٌ والرسومُ كما رقَّش في ظهر الأديم قلمُ

والأخنس بن شهاب التغلبي يقول:

لابنة حطان بن عوف منازل كما رقش العنوانَ في الرق كاتبُ

ولبيد يقول في معلقة:

وجلا السيول عن الطلال كأنها زبر تجد متونها أقلامها

* * *

والرسول عليه الصلاة والسلام يجعل فداء الأسير في بدر تعليم عشرة من صبيان المسلمين القراءة والكتابة، وكان له كتاب الوحي(١) وذلك يدل على أن الكتابة كانت معروفة لديهم شائعة عندهم، وعلى الأخص في الحواضر كمكة والمدينة والحيرة.

ولكن العرب لم يستخدموا الكتابة في تدوين أشعارهم، ولو أنهم فعلوا ذلك لوجدنا من الرواة من يذكر أنه نقل عن قرطاس مكتوب في الجاهلية، أو يزعم أن شاعراً جاهلياً كان يلقي قصيدته من صحيفة مكتوبة، وهذا لم يحدث، يقول الجاحظ: «وكل شيء للعرب إنما هو بديهة وارتجال، وكأنه

١- راجع طبقات ابن سعد ج٢ ص١٤.

الهام. فماهو الا أن يصرف العربى وهمه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فتأتيه المعانى أرسالًا: وتنثال عليه الألفاظ أنثيالًا، ثم هو لا يقيده على نفسه(١)».

ويقول ابن سلام: لما كثر الإسلام وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب فى الأمصار راجعوا رواية الشعر، فلم يؤولوا إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، وألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك، فحفظوا أقل ذلك وذهب عليهم منه كثير(٢).

وماقيل من أن المعلقات كانت قد كتبت وعلقت على الكعبة، فأمر لا يخرج عن مجال التخمين والحدس، لمحاولة تفسير التعليق. على أن كثيراً من المحققين لم يرتضوه كما سيأتى.

وإذا كان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف لم يدوّنا إلا بعد الرسول عليه السلام، وبعد تردد كبير استمر فترة طويلة، وهما ركنا الشريعة، وعماد الحياة الجديدة وحاجاتها الدينية، فكيف يمكن أن نزعم أن العرب كانت عندهم فكرة الجمع والتدوين؟ ولايمكن أن نتجاهل صعوبة وسائل الكتابة فى الجاهلية، من الحجارة والجلود والعظام وسعف النخيل، ولهذا صُرفت العرب عن تدوين أشعارها وكانوا يستخدمون تلك الوسائل الصعبة فقط فى المهام السياسية والضرورية.

١- البيان والتبيين ٢٨/٣.
٢- طبقات الشعراء ص٢٢.

ولهذا خفى علينا -كأكثر الأمم- مبدأ قول الشعر، وأول من قاله! أما مانُسب من الشعر إلى آدم وابليس والملائكة والجن والعرب البائدة فهو حديث خرافة. والشعر الذى صحّت روايته منذ أواسط القرن الثانى قبل الهجرة ينتهى أقدم مطولاته إلى مهلل بن ربيعة وأقدم مقطعاته إلى نفر لعلهم لم يبعدوا عنه طويلًا مثل العنبر بن عمرو بن تميم ودريد بن زيد ابن نَهْد، وأعصر بن سعد بن قيس عيلان وزهير بن جناب الكلبى، والأفوه الأودى وأبوداود الإيادى وقد رووا أنه لم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل فى حاجته، وأن أول من قصَّد القصائد وذكر الوقائع المهلهل بن ربيعة التغلبى فى قتل أخيه كلَيب، فهو أول من رويتْ له كلمة تبلغ ثلاثين بيتاً، وتبعه الشعراء مثل امرىء القيس وعلقمة وعبيد ممن أخرجوا لنا الشعر العربى فى صورته الحاضرة(١).

❁ ❁ ❁

ويبدو أن فكرة تدوين الشعر الجاهلى بدأت منذ أوائل القرن الثانى الهجرى فقد ذكروا عن حماد الراوية أنه تعلق بالشعر منذ نقَّب على بيت رجل، فسرقه، وكان فيما أخذه جزء من أشعار الأنصار. ويروى عن ثعلب أن الوليد بن يزيد قد جمع ديوان العرب وأشعارها وأنسابها ولغاتها، وأنه من أجل ذلك طلب من حماد وجنّاد الكوفيين ماعندهما من هذا

١- جواهر الأدب للهاشمى ص٣٤٢ ط١٩٨٣م.

الديوان(١).

وكان أبوعمرو بن العلاء إلى جانب اعتماده على الرواية يقيد كثيراً من الأشعار والأخبار، حتى ملأت كتبه بيتاً له(٢). وتروى للمفضل الضبيّ كتب فيها أشعار وأخبار(٣). غير أن الثابت أنه لم يكتب المفضليات. ولكنه أنشدها تلاميذه.

ومع ذلك فقد كان الرواة بصفة عامة يتحرجون من تدوين الشعر، لأنه يحتاج إلى تلقين خوفاً من اللحن فيه.

ومهما يكن من شيء فإن هذا التدوين -إذا صح- كان تدويناً تاريخياً عاماً للقبائل وأخبارها وأشعارها، ولم يكن تدويناً منهجياً قائماً على الدقة والجرح والتعديل.

أماالتدوين الحق فقد نهض به جماعة من الرواة فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث، وعلى رأسهم الأصمعيُّ الذى اهتم بجمع الشعر الجاهلى فى دواوين ومجموعات صحيحة.

وكان هؤلاء الرواة لا يدونون إلا مايستوثقون منه، بل كانوا يرْحلون إلى الصحراء للتحقق من صحة ماسمعوه. قالوا: إن أباعمرو الشيبانى دخل البادية ومعه (دستيجتان) من حبر، فماخرج حتى أفناهما فى كتابة

١- الفهرست لابن النديم ص١٣٤.
٢- البيان والتبيين ٣٢١/١.
٣- أنباء الرواة ٣٠٢/٣.

ماسمع من العرب[١] كما كان بعض الأعراب يفدون على الحواضر لإشباع نَهَم الرواة فيما يدونون.

هكذا تتسع حركة التدوين والتأليف، حتى نرى هشام بن محمد الكلبى يؤلف نحو ١٤٠ كتاباً، ومثله المدائنى، ويؤلف الهيثم بن عدى خمسين مصنفاً. وقد فقد معظم هذه المصنفات، وبقى القليل. مثل كتاب (الأصنام) لابن الكلبى.

على أن كثيراً من المؤلفين، وخاصة المؤرخين، لم يتحروا الدقة فيما جمعوه ودوَّنوه، مثل اسحق صاحب السيرة النبوية، الذى حشد فى كتابه كلَّ غثٍ، وكلَّ مصنوع، ولم يكن له علم بالشعر، يقول عنه ابن سلام: (وكان ممن أفسد الشعر وهجّنه، وحمل كل غثاء منه، محمد بن اسحق بن يسار ... كتب فى السير أشعار الرجال الذين لم يقولوا شعراً قط، وأشعار النساء، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود، فكتب لهم أشعاراً كثيرة. وليس بشعر، إنما هو كلام مؤلف معقود بقواف ...)[٢].

كما أن ابن هشام صاحب السيرة تعقبه كذلك فى سيرته، ورفض كثيراً مماروواه أو صحح نسبته.

وهكذا أتيح لهؤلاء الوضَّاعين والمحرِّفين من يتعقبهم من الثقات العدول فيميِّز الصحيحَ من الزيف.

١- نزهة الألباء للأنبارى: ٦٣.
٢- طبقات الشعراء ص٨.

ونمضى فى مجال التدوين، حتى نجد أباعمر الشيبانى يجمع أشعار أكثر من ثمانين قبيلة. ثم نرى السكرى يجمع كثيراً من الدواوين، من بينها (ديوان هذيل)، وهو يعدُّ أهم راوٍ فى النصف الثانى من القرن الثالث، ويجمع بين الروايتيں: البصرية والكوفية.

وينتهى القرن الثالث، وقد عرفنا فيه إلى جانب ذلك من المؤلفات الجامعة: حماسة أبى تمام، و(البيان والتبيين) للجاحظ، و(الكامل) للمبرد، و(عيون الأخبار) لابن قتيبة، و(الشعر والشعراء) له أيضاً.

وتتسع موجة التأليف فى القرن الرابع، حتى نرى مثل: (الأغانى) للأصبهانى و(الأمالى) للقالى، و(الموشح) للمرزبانى، وغيرها من مؤلَّفات ابن دريد وابن الأنبارى. وكان هؤلاء يسلسلون رواياتهم، حتى ينتهوا بها إلى الثقات من أمثال ابن العلاء والضبى.

ونعل من المفيد أن نشير هنا إلى أهم مصادر الشعر الجاهلى، مماجمعه ودوَّنه هؤلاء العلماء والرواة، من منتخبات عامة، أو دواوين للشعراء أو القبائل:

١- **المعلقات:** وهى أول مايمثل الأدب الجاهلى. ويقال: إن أول من جمعها، حماد الراوية، وقد جعلها سبعاً: لامرىء القيس، وزهير، وطرفة، ولبيد، وعمرو بن كلثوم، والحارث بن حلّزة، وعنترة. وجعلها المفضل الضبى فى المفضليات سبعاً كذلك، ولكنه أسقط ابن حلّزة وعنترة، وأثبت مكانهما الأعشى والنابغة. ثم جعلها التبريزى فى

شرحه عليها عشراً، فجمع بين الروايتين، وأضاف قصيدة (أقفر من أهله ملحوب) لعبيد بن الأبرص. وقد شرحها الزوزني على رواية حماد

وقد عرفت تلك القصائد بمسميات كثيرة أشهرها: المعلقات السبع، والمذهَّبات والمشهورة والمشهورات، وسماها الباقلانى فى كتابه (إعجاز القرآن) (السبعيات)(١).

وقد دار خلاف طويل بين الأدباء قديماً وحديثاً حول تسميتها بالمعلقات والتعليل لذلك: أنها عُلِّقت على أستار الكعبة: فقد جاء فى العقد الفريد أن العرب قد شغفها الشعر قديماً فعمدت إلى سبع قصائد تخيَّرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى وعلقتها فى أستار الكعبة، فمنه يقال: مذهَّبة امرىء القيس ومذهبة زهير ... والمذهَّبات السبع وقد يقال لها المعلقات(٢).

وقال البغدادى فى خزانته: «ومعنى معلقة: أن العرب كانت فى الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر فى أقصى الأرض فلا يُعبأ به ولا ينشده أحد، حتى يأتى موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان فخراً لقائله وعُلق على ركن من أركان الكعبة حتى ينظر إليه وإن لم يستحسنوه طُرح ولم يُعبأ به»، ثم قال: «روى أن بعض أمراء بنى أمية أمر من اختار له

١- إعجاز القرآن للباقلانى، ص٢٤٢.
٢- العقد الفريد لابن عبدربه، ج/٥/٢٦٩.

سبعة أشعار فسمّاها المعلّقات»[١].

والعجيب أن أئمة الأدب منهم الجاحظ والمبرد وصاحب جمهرة أشعار العرب وصاحب الأغانى لم يؤثر عنهم تلك التسمية ولا التعليل لها ولم يعترفوا بتسمية تلك القصائد (بالمعلقات) كما أن الشرّاح المشهورين لتلك القصائد لم يذكروا أنها معلقات كابن الأنبارى وابن النحاس وابن التبريزى.

وفى العصر الحديث نقرأ للدكتور بدوى طبانه كتاباً بعنوان: معلقات العرب، ط سنة (١٩٥٨م) يؤيد فيه التسمية والتعليل لها، كما نقرأ للدكتور أحمد الحوفى بحثاً فى كتابه (الحياة العربية من الشعر الجاهلى) يرى فيه أنها (معلقات غيرُ معلقات).

فيقول: وأغلب الظن أن قصة التعليق دعوىٰ عن ابن الكلبى أو ادعاها غيره وعزاها إليه، دفعه إلى اختراعها أنه رغب فى تحبيب الشعر الجاهلى إلى الناس، حين بدت بوادر الانصراف عنه إلى الشعر الإسلامي. ولعله قايس دعواه هذه بتعليق قريش للصحيفة، لما اعتز الإسلام بحمزة وعمر، وتعاهدت قريش على أن يكتبوا بينهم كتاباً يتعاقدون فيه على مقاطعة بنى هاشم، فكتبوا بذلك صحيفة وعلّقوها فى جوف الكعبة، توكيداً لها، وتوثيقاً من وفائهم.

ثم لنفرض أن هذه القصائد سُميت بالمعلّقات لأنها علّقت، فإن الذى

١- خزانة الأدب للبغدادى ج٦١/١ - ط بولاق.

أرجِّحه أنها لم تعلق على الكعبة، وإنما استمدت هذه التسمية من طريق آخر: فمن الجائز أنها عُلّقت فى سقف أو على جدار مطوية على عمود أو مايشبهه، لأن العرب لم يكتبوا قبل القرآن كتاباً مدَفَّفاً، وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد، يوصل بعضها ببعض، ثم تطوى على عود أو خشبة، وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة أو سقف الدار، حرصاً عليها من العثة أو الفأرة، كما يفعل بعض سكان الريف المصرى فى صيانة مايهتمون به من أوراق.

ويصح أن التسمية نشأت من إطلاق العرب على القصيدة الجيدة سمطاً -كما سمت قريش قصائد علقمة- والسمط العقد النفيس الذى يحلى به الجيد، قال المفضل الضبى: هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط(١)، ثم أطلقوا على هذه القصائد المعلقات السبع بدل السموط السبع، لأن السمط يعلق، وكانت خفة اللفظ سبباً فى شيوعه وغلبته على لفظ السموط.

وربما كان الباعث على هذه التسمية -كما ذكر أبوجعفر النحاس- أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال: علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزانتى.

وقد ردد ابن رشيق هذا الرأى فى قوله: "وقيل بل كان الملك إذا

١- جمهرة أشعار العرب ٤٥.

استجيدت قصيدة الشاعر يقول: علقوا لنا هذه، لتكون في خزائنه»(١).

لكن أباجعفر وابن رشيق لم يذكرا اسم هذا الملك الكلف بالشعر، فهل نستطيع أن نقف على اسمه؟

أرجح أنه النعمان بن المنذر (حوالى ٥٨٠ - ٦٠٢) لأن ابن سلام يقول: «وقد كان للنعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول ومامُدح به هو وأهل بيته، فصار ذلك إلى بني مروان أو صار منه(٢)». وابن جني يقول: أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج -الكراريس- ثم دفنها في قصره الأبيض، فلما كان المختار بن أبي عبيد، قيل له: إن تحت القصر كنزاً، فاحتفره فأخرج تلك الأشعار(٣).

وليس في هذا مايدعو إلى العجب أو الإنكار، فانه من الخطأ الظن أن الشعر لم يدون إلا في أواخر العصر الأموي وأوائل العباسي، ذلك بأن بعضه كان مدوناً في العصر الجاهلي، وبعضه كان مدوناً في صدر الاسلام في عصر ابن الخطاب.

وليس هناك مايمنع من تسميتها بالمعلقات على معنى أنها عُلّقت بالأذهان لنفاستها وامتيازها.

وللمستشرقين في تعليل التسمية بالمعلقات آراء لا تبعد عن هذا، فقد عرض «نيكلسون» رأيه، ولخص آراء بعضهم في قوله: إن كلمة معلّقة

١- العمدة ٦١/١.
٢- طبقات الشعراء ٢٣.
٣- الخصائص ٣٩٣/١.

مشتقة فى الغالب من كلمة علّق أى ثمين نفيس، وقد يكون المقصود بها أن الإنسان يعلق بها، أو أنها تعلق فى مكان الشرف، أو فى مكان أمين.

على أنه وردت تفسيرات أخرى عدة، منها فى رأى «فون-كرامر» أنها الأشعار التى دُونت، وفى رأى «مولر» أنها القصائد الجواهر، أو السموط.

ولكن بمرور الزمن نسى الناس المعنى الحقيقى للمعلقات، وصار من الضرورى البحث عن تفسير معقول للكلمة، ومن نشأت الرواية التى كررت حتى ألفت، وهى أن المعلقات استمدت تسميتها من تعليقها على الكعبة، لأنها قصائد ممتازة ... ولو أن هذا كان صحيحاً لوجدنا فى النصوص القديمة مايؤيده، ولكنا لم نجد شيئاً يؤيده فى القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو فى تاريخ مكة، أو فى المؤلفات القديمة التى تستمد أخبارها من مصادر قديمة موثوق بها(١).

والذى أميل إليه: أن التسمية والتعليل لها ضرب من الخيال والأساطير ويؤيد هذا:

أ) ماأوردناه عن أئمة الأدب والشراح المذكورين.

ب) كما أن القرآن -على قداسته- لم يجمع فى مصحف واحد إلا بعد وفاة الرسول ﷺ. وبعد مشاورة الصحابة رضوان الله عليهم ومعنى هذا أن فكرة جمع الشعر أو غيره لم تنشأ فى الجاهلية، إماالصعوبة الكتابة حينذاك -كما ذكرنا- أو لاعتمادهم على الرواية والمشافهة فى حفظ أشعارهم!

١- الحياة العربية د/ الحوفى ص ٢٠٩ - ٢١١.

وبعد : فأولى القصائد المذكورة هى لامرىء القيس بن حُجر، ومطلعها :

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ بسقِط اللّوى بين الدَّخُولِ فحومل

وأما الثانية فهى : لطرفة بن العبد، ومطلعها :

لخولةَ أطلالٌ ببُرقةِ ثهْمدِ ظللتُ بها أبكى وأبكى إلى الغدِ

وأما الثالثة فهى : لزهير بن أبى سلمى، ومطلعها :

أمِنْ أمِّ أوفى دمنةٌ لم تُكلّم بحومانةِ الدَّراج فالمتثلَّمِ

وأما الرابعة فهى : لعنترة بن شداد، ومطلعها :

هل غادر الشعراءُ من متردمِ أم هل عرفتَ الدارَ بعد توهُّمِ

وأما الخامسة فهى : لعمرو بن كلثوم، ومطلعها :

ألا هُبِّى بصحْنِكِ فأصْبَحِينا ولا تُبقى خمورَ الأندَرينَا(١)

وأما السادسة فهى : للحارث بن حِلزة اليشكرى من بنى يشْكر من بكر ابن وائل وكان أبرصاً . فيقال : إنه ارتجلها من وراء السِجف للبرص!

اذَنتْنَا ببيْنِـها أسمـاءُ رُبَّ ثاوٍ يملُّ منه الثَّواءُ

وأما السابعة فهى : للبيد بن ربيعة ومطلعها :

عفت الديار محلها فمقامها بمنىً تأبّد غولُها فرَجامُها(٢)

٢- **المفضليات:** وهى للمفضل الضبِّى، وتعدُّ من أوثق مصادر الشعر الجاهلى، لأن صاحبها من الرَواة الثقات، على أنها تصور جوانب

١- الأندرين: قرية بالشام كثيرة الخمر كانت بجنوب حلب قال ياقوت: وهى الآن خراب!

٢- الغَول والرجام: جبلان.

الحياة الجاهلية بأيامها وأحداثها، وعلاقة القبائل بعضها ببعض، وبملوك الحيرة والغساسنة.

وهى فى بعض النسخ ١٢٦ قصيدة، وفى بعضها ١٢٨ قصيدة، وفى بعضها ١٣٠ قصيدة، لسبع وستين شاعراً، منهم ٤٧ جاهلياً.

وقد شرحها ابن الأنبارى وأثبت فى مقدمة الشرح سندها الذى رفعه إلى ابن الأعرابى تلميذ المفضل. ثم نشرتها دار المعارف بتعليق عبدالسلام هارون وأحمد شاكر.

٣- **الأصمعيات:** للأصمعيِّ، وهى كالمفضليات فى الثقة بها. وتبلغ قصائدها ٩٢ قصيدة لواحد وسبعين شاعراًو منهم ٤٠ جاهلياً.

وقد نشرها "آلورد" عام ١٩٠٢م عن نسخة فى برلين. ثم عبدالسلام هارون وأحمد شاكر عن نسخة للشنقيطى عن نسخة قديمة.

٤- **جمهرة أشعار العرب:** لأبى محمد القرشى، وهو ممن عاشوا فى أواخر القرن الثالث أو أوائل الرابع. وبها ٤٩ قصيدة موزعة على سبعة أقسام: المعلقات والمجمهرات، والمنتقيات، والمذهَّبات، والمراثى، والمشوَّبات، والملْحمات.

ولا تصل هذه المجموعة على كل حال إلى مستوى المفضَّليات والأصمعيات من حيث الثقة، لضعف سندها. وقد طبعت مراراً فى القاهرة وبيروت.

٥- **مختارات ابن الشجرى:** المتوفى سنة ٥٤٢هـ، وهى كالجمهرة فى ضعف سندها، وتضم مختارات من الشعر الجاهلى والإسلامى. وقد طبعت بالقاهرة.

٦- **ديوان الحماسة لأبى تمام:** وهو مقطوعات جاهلية واسلامية وعباسية، موزعة على عشرة أبواب، وأكبرها باب الحماسة. وقد شرحه المرزوقى الذى قال: إن أباتمام أصلح الشعر الذى رواه، وغيَّر بعض الألفاظ كما شرحه التبريزى، وكل من الشرحين مطبوع.

وهناك كذلك: حماسة البحترى، وحماسة ابن الشجرى التى طبعت فى حيدر آباد، وغيرهما من دواوين الحماسة.

٧- **دواوين الشعراء الستة الجاهليين:** وقد جمعها الأصمعى من شعر امرىء القيس والنابغة وزهير وطرفة وعنترة وعلقمة. وقد شرحهما الشنتمرى، ونشرها آلورد.

وقد طبع ديوان امرىء القيس مستقلًا عدة طبعات، أهمها طبعة دار المعارف كما نشرت دار الكتب ديوان زهير، بشرح ثعلب. كما طبعت دواوين النابغة وطرفة ولبيد وعروة بن الورد وحاتم وعلقمة والشنفرى وأوس بن حجر. ونشرت كذلك أشعار الهذليين، وديوان أبى ذؤيب الهذلى.

٨- **شرح النقائض:** وهو لأبى عبيدة، وقد جمع فيه كثيراً من الشعر الذى قيل فى أيام العرب.

ومن الكتب التي تناولت أيام العرب كذلك: الكامل لابن الأثير، والعقد الفريد لابن عبدربه.

٩- **طبقات الشعراء:** وهو لابن سلام، وقد درس فيه الشعر الجاهلي، وحقق نسبته، وبين الصحيح منه والموضوع.

١٠- **كتب أخرى:** وهناك غير ماتقدم: الشعر والشعراء لابن قتيبة، والبيان والتبيين والحيوان للجاحظ، والكامل للمبرد، وأمالي اليزيدي، وأمالي القالي ومجالس ثعلب، والمؤتلف والمختلف للآمدي، وكتابا الموشح ومعجم الشعراء للمرزباني، ثم خزانة الأدب للبغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣هـ.

ويعد كتاب (الأغاني) للأصبهاني من أكبر مصادر الشعر الجاهلي، فقد ترجم فيه للشعراء من القرن السادس الميلادي إلى القرن التاسع للميلاد. وسجل كثيراً من الشعر الذي فقد، واهتم بالأسانيد التي ترجع إلى مصادرها الأولى من الرواة الثقات، وكان ذا ذوقٍ وبصرٍ بالشعر، مما أعانه على الدقة والتحقيق والتثبيت(١).

١- راجع (مصادر الشعر الجاهلي) لناصر الدين الأسد، و(العصر الجاهلي) لشوقي ضيف.

الفصل السادس

الشعر الجاهلى
بين
الوضع والانتحال

كان من أسباب الشك فيما ورد من أدب جاهلى هو ماوضعه بعض الرواة من عند أنفسهم أو تحريفهم لبعض النصوص أو التشكيك فى نسبتها أو غير ذلك مماصنعه حماد الراوية[١] وخلف الأحمر ولكن كان هناك كذلك رواة أمناء تعقَّبوا أولئك المحرفين، ووقفوا لهم بالمرصاد، يكشفون زيفهم، ويصححون أخطاءهم، حتى خلصوا لنا قدراً كبيراً من الشعر الجاهلى الصحيح الذى يمكن أن نثق به، ونطمئن إلى صحته، ومن هؤلاء أبوعمر بن العلاء، والمفضل الضبى، والأصمعى ثم ابن سلام صاحب كتاب (طبقات فحول الشعراء).

ومع ذلك فقد استغلَّ كثير من المستشرقين ومن تابعهم من النقاد العرب المحدثين، موضوع الرواة الوضَّاعين، فأخذوا يشكون فى الشعر الجاهلى كله، ويشككون فيه، حتى انتهى الشك بكثير منهم إلى رفضه كلّه وقادهم إلى تعميم الحكم عليه كلّه بالوضع والانتحال.

وقبل أن نفصل الأمر فى هذه القضية، يحسن أن نشير إلى الأسباب التى دعت إلى تحريف الشعر الجاهلى والانتحال فيه.

فقد ردها ابن سلام فى كتابه إلى: عامل القبائل، وعامل الرواة الوضاعين، ثم زاد الدكتور طه حسين على هذين العاملين: عاملى الدين والشعوبية:

١- راجع (مصادر الشعر الجاهلى) لناصرالدين الأسد، و(الأدب الجاهلى) لطه حسين، و(تاريخ آداب العرب) للرافعى، و(العصر الجاهلى) لشوقى ضيف، و(طبقات فحول الشعراء) لابن سلام.

١- فأما عامل القبائل، أو عامل السياسة كما سماه طه حسين، فيرجع إلى عصبية القبائل التى أرادت أن تتزيد فى مناقبها، فزادت على أشعارها التى تصوِّر هذه المناقب، وقد أشار ابن سلام إلى ماأضافته قريش من هذا الشعر، وماوضعته على لسان حسان، كمايشير إلى أن داود بن متمم بن نويرة زاد على شعر أبيه، حين استنشده أبوعبيدة الذى اكتشف زيفه بفطنته وذوقه وبصره بشعر الشعراء(١). كما شك فى قصيدة أبى طالب التى روتها قريش فى مدح الرسول ﷺ(٢).

٢- وأما الرواة المنتحلون فهم عند ابن سلام طائفتان: طائفة تُحْسن صوْغ الشعر فهى تضيف ماتنظمه إلى الجاهليين، مثل (حماد وخلف)، «وليس يشكل على أهل العلم زيادة الرواة ولا ماوضعوا ولا ماوضع المولدون (٣)» وطائفة لا تحسن ذلك، ولا تستطيع أن تحتذى شعر الجاهليين، ولكنها تجمع كلَّ غثاءٍ وزيف، مثل رواة الأخبار والسير والقصص، كابن اسحق صاحب السيرة النبوية. وقد وصف ابن سلام صنيع هؤلاء بأنه شعر غث «لا خير فيه، ولا حجةَ فى عربيته، ولا أدب يُستفاد، ولا معنى يُستخرج، ولا مثل يضرب، ولا مديح رائع، ولا

١- طبقات الشعراء: ٤٠.
٢- المصدر نفسه: ٢٠٤.
٣- المصدر نفسه: ٤٠.

هجاء مقذع .... إلخ(١)».

وربما كان الدافع لهؤلاء الرواة على الوضع، هو الاستجابة لرغبة القبائل فى ذلك، أو حرصهم على أن يظهروا فى الناس بمعرفة مالا يعرفه غيرهم، بدافع المنافسة.

وقد أشار ابن سلام إلى هذين العاملين بقوله: «لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر أيامها ومآثرها استقلَّ بعضُ العشائر شعرَ شعرائهم، وماذهب من ذكر وقائعهم، وكان قوم قلَّت وقائعُهم وأشعارهم، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الوقائع والأشعار، فقالوا على ألسن شعرائهم، ثم كانت الرواة فزادوا فى الأشعار»(٢).

٣- وأما عامل الدين فيتمثل فى الأشعار التى نظمت فى الجاهلية إرهاصاً ببعثة الرسول ﷺ، وفيماأضيف إلى الجن والأمم القديمة البائدة، ونحو ذلك مما رواه أمثال ابن اسحق وغيره. وابن الصمت وغيرهما.

٤- وأما عامل الشعوبية فقد دفع بالأعاجم إلى أن تضع على ألسنة الجاهليين أشعاراً تثبت مثالبهم ومناقب الأعاجم، كما دفع العرب إلى وضع عكس ذلك، ومن هذا المنطلق أخذ طه حسين يشكك فيما أضافه الجاحظ إلى الجاهليين فى كتابه (الحيوان) ممايدل على اتساع معرفة العرب فى هذا العلم.

❋ ❋ ❋

١- طبقات الشعراء ص: ٥.
٢- المصدر السابق: ٣٩ ومابعدها.

هذه هي أسباب الانتحال عند ابن سلام وغيره من النقاد. ومعنى ذلك أن في الشعر الجاهلي ماهو منتحل، وفيه كذلك ماهو موثوق به. وقد تعقب الرواة الثقات حقيقة هذا المنتحل وكشفوا زيفه، ورفضوه، كما استطاعوا تمييز الموثوق به، والمجتمع عليه، وقبلوه. وقد تبلور ذلك كله آخر الأمر فيما أوضحه النقاد، كابن سلام في كتابه (طبقات فحول الشعراء).

غير أن جانب الانتحال قد أغرى كثيراً من المستشرقين ومن تابعهم من نقاد العرب المحدثين بالشك في الشعر الجاهلي كله أو معظمه، حيث وجدوا في الرواة الوضاعين منفذاً إلى الطعن فيه، وعدم الثقة به، متجاهلين الجانب الحقيقي الآخر لصورة المشكلة، ذلك الجانب الذي وقف فيه الثقات من الرواة والنقاد على أرض الحقيقة الصلبة.

فهنالك (آلورد) الذي نشر دواوين الشعراء الستة الجاهليين، ثم (بروكلمان)، ثم (مرجليوث) و(بلاشير) وغيرهم من المستشرقين.

وسنكتفي هنا بعرض أهم هذه الآراء ومناقشتها.

* * *

أما (مرجليوث) فقد كان أكثر من أثار هذه القضية، ومن أهم ماكتب في ذلك مقاله في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية سنة

١٩٥٢(١) وهذه خلاصة آرائه:

١- ينفى أن يكون الشعر الجاهلى قد انتقل عن طريق الرواية، وأن تكون هذه الرواية هى التى حفظته حتى انتهى الينا.

قد ثبت أن سلسلة روايته لم تنقطع حتى عصر التدوين على أن المستشرق (لايل) فى مقدمته لديوان عبيدبن الأبرص يؤكد أن رواية هذا الشعر استمرت حية نشطة من العصر الجاهلى إلى أن دُوِّن نهائياً فى العصر العباسى، ويقول: إن من يرجع إلى المعلقات مثلًا يجد لكل منها شخصيتها الواضحة التى تنفرد بها، والتى تثبت أنها لصاحبها.

٢- يتخذ من الرواة المتهمين ومن طعن الرواة بعضهم فى بعض ذريعةً لما زعمه من أن الوضع فى هذا الشعر كان مستمراً ونرى كثيراً من اعتراضات الباحثين عليه فمثلًا:

أ) يرد عليه (لايل) فى مقدمته للمفضليات، برأى وسنعرض له فى مكانه ص١١١.

ب) كما يرد عليه أيضاً فى مقدمة ديوان عبيدبن الأبرص، بأن تقاليد شعر القرن الأول الهجرى تلزم وجود الشعر الجاهلى الذى يشترك معها فى نفس التقاليد.

١- راجع هذا المقال فى كتاب (مصادر الشعر الجاهلى) لناصر الأسد ٣٥٣ ومابعدها.

ج) وبأن فى الشعر الجاهلى الذى وصلنا ألفاظاً غريبة لم تكن تستخدم فى عصر هؤلاء الرواة الذين دوَّنوه.

ء) ويضيف الدكتور شوقى ضيف إلى هذه الردود أن فى الشعر الجاهلى صوراً من الأساليب والتراكيب الخارجة على الصورة النحوية الطبيعية، ممايدل على قدمها، وأن فيه كذلك صورة للتهتك الخلقى لا تقوم إلا فى نفس وثنى، على نحو مايلقانا فى معلقة امرىء القيس(1).

٣- ويقول: إن الشعر الجاهلى لا يمثل الوثنية ولا النصرانية، وإنما هو مصبوغ بصبغة إسلامية.

وفى كتاب الأصنام لابن الكلبى، من الشعر الجاهلى المصور لذلك ماينقض زعمه، ولا ينافى ذلك أن ماورد منه مصبوغاً بصبغة اسلامية موضوع منتحل.

٤- ويقول كذلك: إن هذا الشعر أولًا: لا يمثل لهجات القبائل المتعددة فى الجاهلية، وثانياً: لا يمثل الاختلاف بين لغة العدنانيين فى الشمال ولغة الحميريين فى الجنوب، وإنما يمثل لغة واحدة هى لغة القرآن الكريم.

أمااللهجات: فقد توحَّدت وتركزت فى لهجة قريش منذ أوائل العصر الجاهلى، إذ أن قريشاً بحكم مركزها الدينى فى مكة، ومكانها

١- العصر الجاهلى ص١٦٨.

الاقتصادى فى الجزيرة العربية، وإشرافها على الأسواق التجارية والأدبية، كانت تحتل مكان السيادة، فسادت لهجتها تبعاً لذلك، ونظم بها جميع الشعراء متخلين عن لهجات قبائلهم.

وأما أنه لا يمثل اللغة الحميرية فى الجنوب فلأنها ليست لغته، لأنها لغة الحميريين الذين لم يهاجروا إلى الشمال، أماالسبئيون الذين هاجروا فإنهم اصطنعوا اللهجة القرشية ونظموا الشعر بها. ولهذا يقول أبوعمرو بن العلاء: «مالسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا»(١).

٥- وأخيراً يقول مرجليوث: إن النقوش الأثرية لا تدل على وجود أى نشاط شعرى فى الممالك الجاهلية المتحضرة كاليمن، فكيف يتاح هذا النشاط لبدو غير متحضرين؟

وقد رد عليه المستشرق (براونلس) بأن نظام الشعر لا يرتبط بالحضارة ولا بالثقافة، فهناك بدائيون لهم شعر كثير مثل الإسكيمو.

والحق أن مرجليوث جانبه الصواب فى دعواه ولذلك هبّ كثير من المستشرقين يردُّون عليه مثل «براونلش»، «ولايل» واحتج عليه الأخير فى مقدمته للمفضليات بأن من وضعوا هذا الشعر على فرض التسليم بذلك كانوا يحاكون نماذج سابقة وتقاليد أدبية موروثة قلّدوها وحاكوها ونفس هذه المحاكاة تدل على وجود أصل كانوا يحاكونه إذ

١- طبقات الشعراء لابن سلام ص١١.

لا يمكن أن يحاكوا شيئاً لم يبق منه مايتيح لهم هذه المحاكاة وإذن فلابد أن يكون هناك شعر جاهلى عرفه الإسلاميون وحاكوه، وحقاً دخله انتحال أمثال حماد وخلف ولكن وراء انتحالهم شعر صحيح ينبغى أن نهتدى فى معرفته بالرواية الوثيقة وصفاته الشخصية والأسلوبية المميزة[١].

❋ ❋ ❋

وأما (بلاشير) فيتلخص طعنه على الشعر الجاهلى فيمايلى[٢]:

١- يزعم أن رواة البصرة ونحاتها جردوا لغة الشعر الجاهلى الذى وصلنا من آثار اللهجات المختلفة، وأخضعوها لقواعد النحو البصرية. فاللغة التى نراها فى هذا الشعر موحدة لا تمثل اللهجات التى كانت سائدة فى العصر الجاهلى.

والرد على ذلك ماأشرنا إليه من قبل، من سيادة اللهجة القرشية واتجاه الشعراء إلى نظم شعرهم بها.

لقد كان لقريش نفوذ كبير بسبب مركزها الروحى والمادى، فقد كانت تقوم على حراسة الكعبة، وكانت قوافلها تجوب كل أنحاء الجزيرة، وكانت كل القبائل تجتمع عليها فى الأعياد الدينية والأسواق التجارية والأدبية.

١- العصر الجاهلى لشوقى ضيف: ١٦٧ - ١٦٨.
٢- راجع كتاب (تاريخ الأدب العربى) لبلاشير.

وإذن فقد كانت محط الرحال، ومناط الأنظار، ومهوى الأفئدة. وهى فى كل ذلك تعمل على صقل لهجتها، وتهذيب حواشيها، باختيار ماعذُب فى اللسان، وخفَّ على السمع، من لهجات هذه القبائل جميعها. وبذلك كله تهيأ للهجتها أن تسود اللهجات، وأن تصبح هى اللغة الفصحى التى نزل بها القرآن الكريم.

يقول أبونصر الفارابى: «كانت قريش أجود العرب انتقاءً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عمَّا فى النفس»(١).

ويروى أحمد بن فارس عن اسماعيل بن عبيدالله قوله: «أجمع علماؤنا ... أن قريشاً أفصح العرب ألسنة، وأصفاهم لغة، وذلك أن الله اصطفاهم، واختار منهم بنى الرحمة، فجعلهم قُطَّان(٢) حرمه، وجيران بيته، فكان وفود العرب يفدون إلى مكة للحج، يتحاكمون إليهم ... وكانت قريش مع فصاحتها وحسن لغتها إذا أتتهم الوفود تخيروا من كلامهم أحسن لغاتهم، وأصفى كلامهم ... فصاروا بذلك أفصح العرب ...»(٣).

وينقل صاحب الأغانى ماقاله الرواة من أن العرب (كانت تعرض أشعارها على قريش، فما قبلوه منها كان مقبولاً، وماردوه كان

١- المزهر للسيوطى: ٢١١/١.
٢- أى سكان حرمه.
٣- الصاحبى فى فقه اللغة، و(العصر الجاهلى) لشوقى ضيف: ١٣٢ ومابعدها.

مردوداً»(١).

وأما مايزعمه (بلاشير) من أن الرواة عدَّلوا فى أصول الشعر الجاهلى، وأخضعوها لقواعد النحو البصرية فينقضه ماامتلأت به كتب النحاة من بصريين وكوفيين من الشواذ النحوية التى أبقوها على حالها دون تعديل.

٢- ويعتقد (بلاشير) أن الرواة أدخلوا فى الشعر الجاهلى اصلاحات ذات صبغة جمالية، تقوم على رصانة الألفاظ وجزالتها!

ولو صح اعتقاده لكانت إصلاحاتهم على أساس مقاييس جمالية عرفوها للشعر الجاهلى، تنهض على الجزالة والرصانة، وهذا يقوده إلى الاعتراف بوجود نماذج جاهلية صحيحة يقيسون عليها اصلاحهم.

ومما يدفع هذا الاعتقاد كذلك أن كثيراً من القصائد الجاهلية أثبتها الرواة على حالها دون إصلاح أو تعديل، مع أنها مضطربة الأوزان، مختلة العروض، مثل قصيدة عبيد بن الأبرص.

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

فبعضها من مخلع البسيط، والبعض الآخر مضطرب، لا يجرى على وزن معروف، ومثل قصيدة امرىء القيس:

عيناك دمعهما سجال كأن شأنيهما أو شال

فالشطر الأول من المخلع، والثانى مضطرب ... وهكذا ...

١- أغانى (ساسى) ١١٢/٢١.

٣- ثم ينتهى (بلاشير) إلى القول بأن القصائد المقلدة اختلطت بالقصائد الأصيلة: فى الشعر الجاهلى، بحيث لا يمكن تمييز المقلد من الأصيل.
والرد على ذلك هو أن الرواة الثقات ميَّزوا لنا الأصول الصحيحة، وأجمعوا على توثيقها، كما سبق. وقد تأثر بعض الباحثين العرب بماكتبه المستشرقون فقد تأثر الدكتور (طه حسين) بمارجليوس، كما تأثر كثيراً بآراء غيره من المستشرقين وتابعهم فيها، حين درس هذه القضية فى كتابه (الشعر الجاهلى) الذى أثار ضجة عنيفة فى الأوساط الدينية والأدبية، حيث تصدى للرد عليه كثيرون من العلماء والأدباء فلم يلبث أن حذف منه ماحذف، ثم أعاد نشره باسم (فى الأدب الجاهلى)(١). وفى هذا الكتاب:
"عرض لمدرسة زهير وأبان عن خصائص هذه المدرسة وماتمتاز به وكشف عن طريقها فى تناول الأشياء وعرضها ووضع يده على طائفة كبرى من هذه المميزات التى شارك فيها زهير وأوس بن حجر من قبله والحطيئة وكعب من بعده وجميل بعد الحطيئة ووجد فى هذه السلسلة مذهباً فنياً متكاملًا يأخذ به جيل عن جيل ويرث فيه جيل من جيل هذا النهج الفنى فى تصوير الأشياء وفى إفاضة كل العناصر المادية حول التشبيه وفى الاهتمام باللفظ والاحتفال به وفى رعاية الأسلوب

١- من الردود على هذا الكتاب: (الشهاب الراصد) للأستاذ لطفى جمعه، و(النقد التحليلى) للغمراوى، (نقض مطاعن فى القرآن) للأستاذ محمد عرفه، (نقض كتاب الأدب الجاهلى) للخضر حسين.

وتنقيحه والمرور عليه حيناً بعد حين حتى يأتى أحسن ماتكون الأساليب استواء وصفاء ونقاء «وقد رأيت الرواة يحدثوننا بأن زهير كان يصنع شعره ويتكلفه وينفق الحول أحياناً قبل أن يُظهر القصيدة من شعره. وأن الحطيئة كان عبداً من عبيد الشعر يتكلفه ويشقى فى صنعته. وأن كعباً والحطيئة كليهما قد ذكر صناعة الشعر وتثقيفه والعناء فيه. وإذن فإذا كان هذا كله حقاً فإنا بإزاء مدرسة شعرية معينة أستاذها الأول أوس ابن حجر وأستاذها الثانى زهيَر وأستاذها الثالث الحطيئة الذى أخذ عنه فى الإسلام جميل ومن جميل أخذ كثير فلأعرضُ قبل كل شىء عن الخصائص التى تكون شخصية هؤلاء الشعراء ولألتمس مايمكن أن يكون بينهم جميعاً من التشابه فإذا ظفرتُ بطائفة من الوجوه الفنية يشتركون فيها جميعاً على اختلاف شخصياتهم كان من المرجح أنى قد ظفرت بمدرسة من مدارس الشعر الجاهلى وبالقواعد الفنية التى كانت تقوم عليها المدرسة».

«ويبدأ الدكتور طه فينفى أن يكون قد استنبط هذا من عنده استباطاً أو تكلفة وإنماهو شىء تحدث به الأقدمون تصريحاً مرة وتلميحاً مرة أخرى أشاروا أن زهيراً كان راوية أوس أعنى أستاذه وأن الحطيئة كان راوية زهير ويأخذ الدكتور طريقه فيدرس شعر أوس ويكشف عن هذه البداوة فى معانيه وهذه المتانة فى ألفاظه وهذه الرصانة فى تراكيبه وهذا الغريب الذى يملأ شعره حتى يكاد يغطيه فلا يبين إلا من وراء

ضباب ولا يتكشف إلا بعد جهد إما لغرابة اللفظ وإما لبعد هذه المعانى عما ألِفْت من ألوان الخيال وضروب التصور ولكنه لا يلقى -إلى هذا كله- كبير بال وإنما يقف الوقفة المستأنية الطويلة عند مذهبه الشعرى فى الوصف فيرى فى أوس الشاعر المادى الحس الذى يبدو "كأنه يشعر بحسه، كأن يشعر بعينه وأذنيه ويديه أو قل كأن ملكة الخيال لم تودع منه حيث أودعت من الآخرين من وراء الحواس وإنما أودعت الحواس نفسها"(١).

وقد انتهى الدكتور طه حسين من بحثه إلى رفض الكثرة المطلقة مما يسمى أدباً جاهلياً، فهى منتحلة بعد ظهور الإسلام، وإلى التسليم بصحة القليل جداً من هذا الأدب، وهو "لا يمثل شيئاً، ولا يدل على على شىء، ولا ينبغى الاعتماد عليه فى استخراج الصورة الأدبية الصحيحة لهذا العصر الجاهلى(٢)". ويمكن أن نجمل هنا خلاصة آرائه فى الشعر الجاهلى والرد عليها :

أولاً: الشعر الجاهلى لا يمثل حياة الجاهليين الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية بينما نجد القرآن الكريم يمثلها تمثيلًا قوياً .

١- فى الأدب الجاهلى ص٢٨٦، وأصول البحث الأدبى ومناهجه د/ السيد تقى الدين ص١١٥ -١١٦.

٢- فى الأدب الجاهلى ط١ ص٦٤.

ففى الناحية الدينية نرى القرآن يجادل اليهود والنصارى والمجوس ويهرض لكل المعتقدات الجاهلية، وليس فى الشعر الجاهلى صدق لذلك كله.

والرد على ذلك:

١- أن القرآن كتاب دينى يدعو إلى دين جديد وهو الإسلام، فمن الطبيعى أن يعرض للديانات والمعتقدات ويناقشها، وليست هذه مهمة الشعر(١).

٢- على أن كتاب (الأصنام) لابن الكلبى حافل بالشعر الذى يصور هذه المعتقدات.

٣- ويرى "جورجى زيدان" أن المنظومات الدينية قد ضاعت لاشتغال العرب عنها بالحماسة والفخر بسبب الحروب، فلما جاء الإسلام أغضى الرواة عنها، لأنها وثنية ...

٤- ويذكر المستشرق "أدوار براونلس" أن قلّة الشعر الدينى ترجع إلى أن علماء المسلمين يرفضون من الشعر ما خالف الإسلام(٢).

فإذا كان الشعر الدينى قد بدا قليلا، فذلك راجع لتحّرج الرواة أو لعدم تغلغل الدين فى نفوس الشعراء الجاهليين.

١- (العصر الجاهلى) لشوقى ضيف: ١٧١.
٢- مجلة الأدبيات الشرقية عام ١٩٢٦.

وأما عدم تصوير الشعر للحياة العقلية عند الجاهليين، فأية حياة عقلية لهؤلاء البدو يمكن أن يصورها الشعر؟ إنه صوَّر حياتهم العقلية الفطرية التى لم تصل إلى مستوى فكرى منظم، وهى ليست حياة راقية ولا معقدة.

ومن الناحية السياسية يرى طه حسين أن شعر الجاهليين لا يوضح اتصالهم بمن كان حولهم من الأمم الأخرى كالروم والفرس، بينما يوضح القرآن ذلك مثلًا فى سورة الروم(١).

والحق أن شعراءهم اتصلوا بالغساسنة أتباع الروم، والمناذرة أتباع الفرس، ومدحوهم وهجوهم، كما نرى ذلك عند شعراء بكر لمَّا نشبت الحرب بينهما وبين الفرس.

وهذا عمرو بن كلثوم يقول: (وكأسٍ قد شربتُ ببعلبك ...)

وامرؤ القيس يصف رحلته إلى القسطنطينية، فيقول(٢):

ولو شاء كان الغزو من أرض حمير ... ولكنه عمْداً إلى الروم أنفرا

بكى صاحبى لما رأى الدرب دونه ... وأيقن أنا لا حقان بقيصرا

ويقول الأعشى(٣):

وقد طفتُ للمال آفاقَه ... عُمانَ فحمصَ فأوريشَلمْ

أتيتُ النجاشيَّ فى داره ... وأرضَ النبيطِ وأرضَ العجمْ

فنجرانَ فالسروَ من حِمْيرٍ ... فأىَّ مرامٍ له لمْ أرُمْ

١- راجع الآيات (١-٤).
٢- ديوانه ص٩٥.
٣- ديوانه /١٧١ - ١٧٢.

وشعر النابغة الذبيانى يمثل اتصاله بملوك الحيرة، كما أن شعر عدى بن زيد يمثل هذه الصلة بين العرب والفرس، واتصال عدى بديوان كسرى معروف، إن عدى بن يزيد هو الذى وقف وراء النعمان حتى ولّاه ملك الحيرة بعد أبيه(١).

وأماالناحية الاقتصادية: فإنه يرى أن القرآن يتحدث عن الأغنياء المستأثرين بالثروة، والفقراء المعدمين، كما يتحدث عن البخلاء ويذم البخل، وليس فى شعرهم صدى للنظام الطبقى، ولا تصويراً للبخل، وإنما فيه أن العرب كلهم أجواد كرام.

والحق: أن شعراءهم كما أكثروا من ذكر الكرم ومدحه، أكثروا كذلك من ذكر البخل وذمه. وشعر الصعاليك يصور الصراع القوى بين الفقر والثراء ويثور على ذلك النظام الاقتصادى الجائر.

فالواقع أن الشعر الجاهلى قد مثَّل حياة الجاهليين، ورسم ألوان معيشتهم وصوَّر عاداتهم، وتحدث عن أديانهم، ووصف بيئتهم بماأظلها من سماء وكواكب، وماأقلته من جبال وكثبان، ومادبَّ على أرضها من حيوان، ومانطلق فى اجوائها من طير، كما سجل أيامهم وأخبارهم وتاريخهم.

يقول نيكلسون: "إن الأدب الجاهلى المنظوم منه والمنثور يمكننا من تصوير الأيام الجاهلية تصويراً اقرب مايكون إلى الدقة".

١- راجع الاعتذار فى الأدب العربى د. محمد شريف ص٣٥.

ويقول "ثوربكة" الألماني في كتابه عن عنترة: "يمكن تعريف الشعر الجاهلي بأنه وصف مزين بالشواهد لحياة الجاهلية وأفكارها".

ويقول "نولدكه" المستشرق الهولندي: "إن عادات العرب وأحوالهم معلومة لنا بالدقة نقلًا عن أشعارهم".

ثانياً: الشعر الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية ولهجاتها المختلفة. فقد كانت هناك لغتان تختلف كل منهما عن الأخرى: لغة الحميريين الجنوبية ولغة العدنانيين الشمالية، وقد روى كثير من شعر الجنوبيين بلغة الشماليين، مع ماثبت من اختلاف اللغتين.

وبهذا يرى الدكتور طه طريقاً من ذلك يسوِّغ له التشكيك في الشعر الجاهلي حتى أنه شك في شعر امرىء القيس لأنه يمني وشعره قرشي اللغة.

والحق أن مايضاف إلى من كانوا في أقصى الجنوب من اليمن منتحل، أمامن كانوا يجاورون الشماليين فقد تعرَّبوا في الجاهلية مثل "مذحج" و"بلحارث بن كعب".

وأما السبئيون من القحطانين فقد نزحوا من الجنوب إلى الشمال قبل الإسلام بعد سيل العرم ومنهم اللخميون ملوك الحيرة، والغساسنة ملوك الشام، وغيرهم.

أماحمير فهي التي كانت بأرضها في ظفار وصنعاء وماجاورها، وهي التي قال فيها أبوعمرو بن العلاء: "مالسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا ولا عربيتهم عربيتنا".

أمااللهجات الشمالية المختلفة التى لاحظ الدكتور طه أن الشعر الجاهلى لا يمثلها، حيث كان ينبغى أن تظهر فيه وجوه اختلافها. فقد ذكرنا من قبل أن لهجة قريش قد سادت هذه اللهجات، وأن الشعراء اتجهوا إليها فى أشعارهم، وتحروها فى لغتهم الأدبية.

ثالثاً: ويشكك الدكتور طه فى شعر الشواهد التعليمية على ألفاظ القرآن والحديث والمذاهب الكلامية والنحوية، ويتخذ من ذلك وسيلة لانتحال الشعر الجاهلى.

وهذا الاتهام ينبغى ألا يتجاوز هذه الشواهد إلى الشعر الجاهلى عامة. فتلك أبيات فردية لا يقاس عليها.

* * *

وهكذا نرى من كل مامر بنا أن الشعر الجاهلى قد دخله كثير من التحريف والوضع، غير أن ذلك لا يحملنا على الشك فيه كله، أو رفضه، فإن النقاد القدماء والرواة الثقات قد أدركوا هذا الوضع، وكشفوا عن الزيف، وبذلوا من الجهد والتحرى ماكشف لنا عن الصورة الصحيحة للشعر الجاهلى، بمانقلوه إلينا فى صدق وأمانة، من قصائده التى لا تحتمل الشك أو الرفض، والتى دونتها المصادر الصحيحة التى أشرنا إليها من قبل.

* * *

الفصل السابع

أغراض الشعر الجاهلى

تمهيد:

عاشت العرب حياة بدوية طبيعية تحيط بهم الصحراء الواسعة، وتكنفهم الرمال الشاسعة وتظّلهم السماء الصافية، ويجنهم الليل الساجى، وتحرقهم الشمس، ويحنو عليهم القمر، وتؤنسهم النجوم، وتتجاوب حولهم أصوات الوحوش، وتحيطهم الرياح العاتية حتى إذا أقلّت سحاباً تتبعوا مواقعه!

فالجدب شامل، والإبل عماد حياتهم منها يلبسون ويأكلون، وعليها يحملون، والخيل معقل فرسانهم، يحيون حياة طليقة من كل قيد، الفطرة قانونهم، والتنازع على البقاء سبيلهم، القبيلة هى الدرع الحصين، بها يلوذون وعنها يدافعون ومن هذه البيئة نبتت أخلاقهم ونشأت عاداتهم ومنها كانت أغراض شعرهم، لهذا تنقل شعرهم بين النسيب والفخر والهجاء والمدح والوصف والرثاء، كما حوى طرفاً من الحكمة والاعتذار.

ويرى بعض الأدباء إدماج بعضها فى بعض ويرى بعضهم أن الأغراض جميعها تنتهى إلى المدح والهجاء(١).

❋ ❋ ❋

فالمدح: وهو الثناء على ذى شأن بما يُستحسن من الأخلاق النفيسة كرجاحة العقل والعفة والعدل والشجاعة، وأنّها صفات عريقة فى الممدوح أو فى قومه، وقد شاع المدح عندما ابتذل الشعر واتخذه

١- راجع العمدة لابن رشيق ج١/٧٧، ٧٨.

الشعراء مهنة ومن أوائل مداحى العرب زهير والنابغة والأعشى.

فمن شعر المدح قول زهير يمدح خارجة بن سنان والحارث بن عوف في معلقته التى أشرنا إليها وفيها يقول:

سعى ساعياً غَيظِ بن مرةَ بعدما تبزَّل مابين العشيرة بالدَّمِ
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجالٌ بنَوه من قريشٍ وجُرهم
يميناً لنعم السيدان وجُدِتُما على كل حالٍ من سحيلٍ ومُبرم(١)
تداركتما عبساً وذبيانٌ بعدما تفانوا ودقُوا بينهم عطر منشَمِ(٢)
وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعاً بمالٍ ومعروفٍ من القول نَسْلَمِ
فأصبحتما منها على خير موطنٍ بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معدٍّ هُديتما ومن يستبح كنزاً من المجد يَعْظُم

والأبيات تشيد بموقف خارجة والحارث اللذين سعيا بدور الصلح بين قبيلتى عبس وذبيان فى حرب داحس والغبراء بعدما شقق الصلح بالدم - كما تحمَّل الرجلان ديات القتلى الذين سقطوا فى المعارك الضارية التى دارت بين القبيلتين، تلك الديات التى بلغت ثلاثة آلاف بعير، وهو يقسم بالكعبة المشرَّفة على فضل هذين الرجلين وعلى

١- فى شرح التبريزى: الساعيان هما: هرم بن سنان والحارث بن عوف، والسحيل فى الأصل: خيط غير مبرم والمبرم الخيط المفتول والمراد هنا أنهما خير عشيرتهما فى كل أمر شديد أو لين محكم أو غير محكم.

٢- منشَم: اسم امرأة من خزاعة كانت تبيع العطر بمكة فإذا حاربوا اشتروا منها كافوراً لموتاهم فتشاءموا بها.

أحقيتهما بالثناء والإطراء، وكان الصدق والإخلاص وعدم التكلف من أسرار جمال الأبيات وهو يستقى خياله من الواقع والطبيعة فيقسم بالكعبة ويستعير للشدة واللين الحبلَ المفتول وغير المفتول، ويصور التشاؤم بعطر منشم وهكذا إلى أن يرفعهما إلى علياء معد كما قال النابغة:

يا دار ميـــةَ بالعليـــاء فالسنـــد   أقـوتْ وطال عليها سالفُ الأبد

ولانشك فى صدق عاطفته وهو يشيد بمكارم الأخلاق وهو القائل:

وإن أشعـرَ بيت أنـتَ قائلـهُ   بيتٌ يقـال: إذا أنشدتَـه صدقـاً

والرثاء: وهو تعدد لمناقب الميت وإظهار التفجع والتلهف عليه واستعظام المصيبة فيه وهو نوع من المدح بيد أنه للأموات وغالباً مايتعلق بأفراد وقد يشتمل على الحكمة والموعظة.

ولعل أروع قصائد الرثاء فى العصر الجاهلى رثاء الخنساء أخاها صخر بن عمرو وكان شريفاً فى بنى سليم وقد رثته بقصائد كثيرة حتى اشتهرت برثاء أخيها، ومن ذلك قولها(١):

قذًى بعينكَ أم بالعينِ عُوارِ؟   أم ذرفتْ أَنَ خلتْ من أهلها الدار(٢)

كأن عينى لذكراهُ إذا خَطرتْ   فيضٌ يسيلُ على الخدَّين مدرارُ(٣)

١- الخنساء هى: تماضر بنت عمرو الشريد لها منزلة رفيعة فى الشعر أسلمت مع قومها وماتت سنة ٤٥ هـ (ديوان الخنساء ص٤٩).

٢- العوار: الرمد. ذرفت: قطرت قطراً متتابعاً (سالت) والبيت كناية عن الحسرة.

٣- المدرار: الكثير.

فالعينُ تبكي على صخرٍ وحُق لها ودونَه من جديدِ الأرض أَسْتَارُ(١)
تبكي خُناس وماتنفك ماعَمرت لها عليه أنينٌ وهْي مفتَار(٢)
وإن صخراً لمولانا وسيدُنا وإن صخراً إذا نشتُو لنحَّارُ
وإن صخراً لتأتم الهداةُ به كأنه علم في رأسه نار(٣)

وفى قصيدة أخرى تصفه بقولها:

طويل النجاد رفيع العماد كثير الرمادا إذا ماشتا(٤)

ولم تزل الخنساء تبكى أخاها حتى ماتت.

ومن الرثاء الذى اشتمل على الحكمة والموعظة قول لبيد بن ربيعة يرثى أخاه أربد:

ومالمرءُ إلا كالشهابِ وضوئهِ يحورُ رماداً بعد إذ هو ساطعُ(٥)
ومالمالُ والأهلون إلا ودائع ولابدَّ يوماً أن ترد الودائعُ
ومالناس إلا عاملان: فعامل يتبِّر مايبنى وآخرُ رافع(٦)

أما الفخر والحماسة عند العرب: فمعناه التمدح بخصال الشاعر نفسه وقومه والتحدث بحسن بلائهم ومكارمهم وكرم عنصرهم ورفعة

١- الأستار: الأحجار. وجديد الأرض: كناية عن الموت المبكر.
٢- خناس: الخنساء. ماعمرت: ماعاشت. المفتار: المقصر، تعنى أنها مهما بكت على صخر فهىَ مقصِّرة عن إيفائه حقه.
٣- العلم: المراد به هنا الجبل.
٤- شتا بالمكان: أقام به شتا والبيت كناية عن أنه شجاع، عظيم فى قومه، جواد.
٥- يحور: يرجع.
٦- يتبر: يهلك ويهدم.

حسبهم وغير ذلك، وقد كان من أهم أغراض شعرهم وأكثرها انتشاراً، ولا نبعد إذا قلنا إن الحماسة أهم موضوع استنفد قصائدهم فقد سعرتهم الحروب وأمدها شعراؤهم بوقود جزل من التغنى ببطولتهم وأنهم لا يرهبون الموت، فهم يترامون عليه تحت ظلال السيوف مدافعين عن شرف قبائلهم ويرتفع هذا الغناء فى كل مكان.

ومن روائعهم فى هذا الباب معلقة عمرو بن كلثوم وفيها يصيح بانتصارات قومه وأيامهم المشهورة ومنها قوله:

متى ننقل إلى قومٍ رَحَانا يكونوا فى اللقاء لها طحينَا
يكون ثفالُها شرقىَّ نجدٍ ولُهوتُها قضاعةُ أجمعينَا(١)
نطاعن ماتراخى الناس عنا ونضرب بالسيوف إذا غشينا
نشق بها رءوس القوم شقاً ونخليها الرقاب فتختلينا
كأن جماجم الأبطال فيها وَسُوق بالأماعز يرتمينا(٢)
ورثنا المجد قد عَلِمَتْ معدٌّ نطاعن دونه حتى يبينا(٣)
ونحن إذا عماد الحى خَرَّت على الأحفاض نمنع من يلينا(٤)
نجذ رءوسهم فى غير وتر فمايدرون ماذا يتقونا(٥)

١- الثفال: خرقة توضع تحت الرحى لاستقبال مايطحن واللهوة: القبضة من الحب.
٢- الأماعز: الأراضى الصلبة، الوسوق: جمع وسق وهو الحمل.
٣- يبين: يتضح.
٤- العماد: جمع عمود، الأحفاض: متاع البيت والمراد رحلة الحى للحرب.
٥- الوتر: الثأر ونجذ: نقطع.

كأن سيوفَنا فينا وفيهم مخاريقٌ بأيدى لاعبينا(١)
كأن ثيابَنا منا ومنهم خُضِبن بأرجوانٍ أو طُلينا(٢)
لنا الدُّنيا ومن أمسىٰ عليها ونبطشُ حين نبطشُ قادرينا
إذا بلغَ الرضيعُ لنا فطاماً تَخِرُّ له الجبابرُ ساجدَينا

وهكذا يظل فى حماسة وصياح شديد طوال أبيات معلقته يشيد بانتصارات قبيلته (تغلب) ويحذِّر كل من تُسول له نفسه بقتالها، فحياتهم سلسة من الحروب ويمتد فخره إلى قبائل معدّ كلها، فالسيوف فى أيديهم وأيدى أعدائهم كأنها مخاريق بأيدى لاعبين وهم يقتلون فيهم فثيابهم جميعاً ملطخة بالدماء، وفى هذا وصف لأعدائه بالشجاعة وهذا من باب الإنصاف ولهذا فقصيدته من بين القصائد التى تسمى (المنصفة).

والهجاء: تعدادٌ لمثالب المرء ولقبيلته ونفى المكارم والمحاسن عنهما، وقد دار الهجاء فى الجاهلية حول كل مايناقض المروءة وهى تعنى الفضائل، كالشجاعة والكرم وحماية الجار والوفاء والنجدة وطلب الثأر، ولا يكتفى الهجَّاءون بذلك، بل يتعرضون لمخازى القبيلة فى حروبها وأيامها التى ولّت على أدبارها منهزمة منكسة الأعلام، وامتدَّ الهجاء للقذف فى الأعراض والطعن فى الأنساب متعرضين للأمهات

١- المخاريق: المناديل تلف ويلعب بها لعبة كانت عندهم.
٢- الأرجوان: صبغ أحمر.

وهكذا كانت صور الهجاء فى الجاهلية، ولهذا كان من أكثر الأغراض شيوعاً.

فقد كان بين الأوس والخزرج قديماً حروباً لا تنقطع وكانت قبيلة «مُزَينة» مع الأوس فى حربها وكانت قد أسرت «ثابتاً» والد حسان فهجاها بقوله(١):

جاءتْ مُزَينة من عَمْقٍ لتنصرهم　　انجى مزينةَ فى أستاهلك الفُتُل(٢)

فكل شيءٍ سوى أن تذكروا شرفاً　　أو تبلغوا حسباً من شأنكم جَلَل(٣)

قومٌ مدانيس لا يمشى بَعقْوتِهم　　جارٌ وليس لهم فى موطنٍ بَطَلُ(٤)

وقال فى هجاء مزينة أيضاً:

مزينةُ لا يُرى فيها خطيبٌ　　ولا فَلِجٌ يُطَافُ به خصيبُ(٥)

ولا من يملأ الشِّيزى ويحمى　　إذا ماالكلب أحْجَره الضَّريبُ(٦)

رجالٌ تَهلك الحسناتُ فيهم　　يَرون التَّيس كالفرسِ النجيبِ(٧)

فهذا لون من الهجاء الموجع حيث جعلهم لخستهم ليسوا ذوى بصر بالخير تهلك الحسنات فيهم وهو تعبير جميل عن معنى جميل إذ يستوى

١- ديوان حسان تحقيق د.سيد حنفى ص٢٩٦.
٢- عَمْق: واد بالطائف أو موضع ماء ببلاد مُزينة. والأستاه: الأدبار. والفتل جمع فتيل.
٣- جلل: هين، وهى من أسماء الأضداد.
٤- العقوة: ماحول الدار والمحلة. مدانيس: قذرون.
٥- الفلج: النهر الصغير، والسخي. والمراد به: الفائز القدح.
٦- الشيزى: نوع من القصاع. أجحره الضريب: الجأه الجليد إلى جُحره.
٧- ديوانه ص٢٩٦ والبيت فيه إقواء.

عندهم التيس والفرس النجيب، فهو هجاء بلغ فى حسن لفظه وجمال سبكه وشدة وقعه على المهجو مايتوخاه الشعر الهجائى من غاية إلا أن به إقواء فى البيت الأخير.

أما التغزل: أو التشبيب ويسمى النسيب أيضاً. فقد كان فى مقدمة جل قصائد العرب حيث بدأ العرب القدامى أشعارهم بذكر النساء ومحاسنهن وشرح أحوالهن وكان له عندهم المقام الأول من بين أغراض الشعر حتى لو انضمَّ إليه غرض آخر قدِّم النسيب عليه وافتتح به القصيد، لما فيه من لهو النفس وارتياح الخاطر ولأن باعثه الفذ هو الحب وهو السر فى كل اجتماع إنسانى والبدو أكثر الناس حباً لفراغهم، وكان الغزل عند العرب موزعاً بين ذكريات الشاعر لشبابه ووصفه للمرأة وبكاء الديار التى رحل عنها المحبوب، ونراهم يقفون عند المرأة فيصفون جسدها ولا يكادون يتركون شيئاً فيها دون وصف له، وقد يتعرضون لبعض مغامراتهم معها وهى مغامرات تحوَّل بها بعض الرواة إلى قصص غرامية على نحو ماقصوا عن حب المنخل اليشكرى للمتجردة زوج النعمان، وله قصيدة رائعة رواها الأصمعى ومنها قوله(١):

ولقد دخلتُ على الفتا ... ةِ الخِدرَ فى اليوم المطيرِ

الكاعبِ الحسناءِ تر ... فُلُ فى الدمقسِ وفى الحرير

فدفعتُـها فتدافعـتْ ... مشىَ القطاةِ إلى الغدير

١- الأصمعيات رقم١٤.

ولثمتُها فتنفستْ كتنفُّسِ الظبيِ البَهيرِ(١)
فدنتْ وقالت يا مُنخّلُ مابجسمك من حَرورِ
ماشفَّ جسمىَ غيرُ حبِّكِ فاهدئى عنى وسيرى

وقد كان استهلال الشاعر الجاهلى قصيدته بالغزل تقليداً لازماً أياً كان غرض القصيدة ولهم فى ذلك نظر دون شك. وقد رأينا فى معظم مطالع المعلقات السبع، وللشاعر امرىء القيس باع طويل فى باب الغزل. انظر إليه وهو يستهل معلقته بقوله:

قفا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزل بسقِط اللّوى بين الدخولِ فحوْمل

ثم يقص علينا موقفه مع جماعة من العذارى بينهن عنيزة بنت عمه ومحبوبته وكيف احتال للركوب معها بذبح ناقته لهنَّ وكيف كان يُدخل رأسه فى خِدرها فيقول(٢):

ويومَ عقرتُ للعذارىٰ مطيَّتى فيا عجباً من رحْلها المتحّمل
يظلَّ العذارى يرتمين بلحْمها وشحمٍ كهدَّاب الدَّمقس المفتَّل(٣)
ويومَ دخلتُ الخِدرَ خِدر عُنيزةٍ فقالتْ لك الويلاتُ إنَّك مُرجلى(٤)

١- البهير: من البهر وهو مايعترى الإنسان والحيوان عند السعى الشديد من النهج وتتابع الأنفاس.
٢- راجع القصة كاملة فى شرح القصائد السبع الطوال لابن الانبارى ط دارالمعارف، ص١٤، ١٥.
٣- أى كأطراف الحرير.
٤- مرجلى: من ترجل أى مشى على رجليه.

تقول وقد مال الغبيطُ بنا معاً   عقرتَ بعيرى ياامرأ القيس فانزل(١)

فقلت لها : سيرى وأرخى زمامه   ولا تبعدينا من جناك المعلَّل(٢)

الوصف: وهو شرح حال الشيء وهيئته على ماهو عليه فى الواقع لإحضاره فى ذهن السامع كأنه يراه أو يشعر به. وقد وصف العرب كل شيء وقعت عليه أعينهم، وصفوا رحلاتهم فى الصحراء ومايعانونه من المخاطر، وصفوا قطْعهم للمفاوز البعيدة فوق إبلهم، وصفوا إبلهم وشبهوها بكثير من التشبيهات، فتارة يشبهونها بالقصور وقوائمها بالأعمدة وأخرى يشبهونها بالسفن وقوائمها بجذوع الطلح ويديها بالصخر وغير ذلك كثير.

وقد أبدع امرؤ القيس فى وصف فرسه فى معلقته ومن ذلك قوله:

وقد أغتدى والطيرُ فى وُكناتِها   بمنجردٍ قِيد الأوابدِ هيكل(٣)

مكرٍ مفرٍ مُقبلٍ مدبرٍ معاً   كجلمودِ صخرٍ حطَّه السيلُ من عل(٤)

كُمَيْت يَزِلُ اللِّبدُ عن حاذِ مَتْنِهِ   كما زلتِ الصفواءُ بالمتنزِّل(٥)

١- الغبيط: الرحل والموكب.

٢- أرخى زمامه: أى اتركيه يسير دون أن تشدى زمامه والمعلل الذى علل بالطيب مرة بعد مرة.

٣- الوكنات: مكان أبيض أو المبيت، المنجرد: الأجرد القصير الشعر الصافى، وقيد الأوابد: أى هو قيد للوحوش العظيمة.

٤- أراد بالبيت السرعة والمرونة وحطه: حدُره من أعلى.

٥- شبه ملاسة ظهر الفرس لاكتناز اللحم عليه وامتلائه بالصفاة (الصحراء الملساء).

على العَقبِ جَيَّاش كأن اهتزامَه إذا جَاشَ فيه حَمْيُه غَلْى مرْجل(١)
مِسَحٌ إذا ماالسابحات على الونَى أثَرنَ الغبارَ بالكديد المركل(٢)
لَه أيطَلَا ظبى وَساقاً نعامةٍ وإرخاءُ سِرحانٍ وتقريبُ تَتْفُلِ(٣)

فقد صور سرعته تصويراً بديعاً فجعله قيداً لأوابد الوحش إذا انطلقت فى الصحراء فإنها لا تستطيع إفلاتاً منه قيد يأخذ بأرجلها، وهو لشدة حركته وسرعته يخيل إليك كأنه يفر ويكر فى الوقت نفسه وكأنه يقبل ويدبر فى آن واحد، وكأنه جلمود صخر يهوى به السيل من ذروة جبل عالٍ وهو يصب الجرى صباً ويسبق كل الخيل سبقاً لا يثير غباراً ولا نقعاً إنما يُحرك بالعقب فيجيش كغليان القِدر لا ينى ولا يفتر، وهو فرس ضامر كأنه ظبى نافر فله خاصرتاه النحيلتان وهو كنعامة خفيفة فله ساقاها الضئيلتان، يهوى كالذئب ويقفز كالثعلب.

١- العقب: جرى بعد جرى أو أنك إذا حركته بعقبك بدلاً من السوط جاشى (أسرع) اهتزامه: صوت جريه إذا جاش كغليان المرجل.

٢- مسح: يصب جريه صباً، والسابحات: اللواتى عدوهُن سباحة والسباحة فى الجرى أن تبسط يديها قدر المستطاع، على الونى: على الجهد والضعف، والكدير: الموضع الغليظ، والمُركل: مايركل بالأرجل.

٣- الأيطل: مابين آخر الضلوع إلى الورك ويسمى الكشح وشبهه بأيطل الظبى لأنه ليس بعريض وساقا نعامة: أى قصير الساقين صلبتهما، ويستحب من الفرس قصر الساق لأنه أشد للرمى.
والإرخاء: جرى ليس بالشديد والسرحان: الذئب، والتقريب: أن يرفع يديه معاً ويضعهما معاً، والتنفل: ولد الثعلب، يقال هو يعدو الثعلبية إذا كان جيد التقريب.

المثل والحكمة: فالمثل تعبير موجز عن خلاصة تجربة إنسانية يشبه فيها المضرِب بالمورد كقولهم: «الصيفَ ضيعتِ اللبَنَ» ويُضرب لمن يطلب حاجته بعد فوات الأوان. إذن فالمثل مرآة تريك أحوال الأمم وقد مضت وتقفك على أخلاقها وقد انقضت.

أما الحكمة: فهى قول رائع يتضمن حكماً سريعاً صحيحاً مسلماً به وقد تخللت الحكمة فى القصائد الجاهلية فكانت ضُروباً من المعانى التهذيبية مايزال الشاعر يدلى بتجاربه فى تضاعيف قصيدته وممن عرفوا بها علقمة بن عبدة وزهير بن أبى سلمى. فعلقمة يلخص لنا رأى الجاهلين فى المرأة فيقول فى بائيته(١):

فإن تسألونى بالنّساء فإنّى بصيرٌ بأدواء النساءِ طبيبُ
إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ ماله فليسَ له من ودهنَّ نصيبُ

ومن الحكم الرائعة فى معلقة زهير قوله:

وأعلمُ مافى اليوم والأمسِ قبلهِ ولكننَّى عن علم مافى غدٍ عمِ
ومن يجعل المعروف من دونِ عرضِه يَفرْه ومن لا يتقِ الشّتم يُشتَمِ(٢)
ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضلهِ على قومهِ يُستغنَ عنه ويُذْممِ

١- الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى، ص١٢٦، ط بيروت.
٢- يصنه ويحفظ.

ومن يُوفِ لا يذممْ ومن يُهد قلبُه إلى مطمئنِّ البر لا يتجمجم(١)
ومن هابَ أسبابَ المنايا ينلْنه وإن يرقَ أسبابَ السماء بسُلّم
ومن يجعل المعروفَ في غير أهلهِ يكن حَمْده ذماً عليه ويندَم
ومن لم يذُد عن حوضه بسلاحِهِ يُهدَّم ومن لا يَظلم الناسَ يُظْلَمِ(٢)
ومهما تكن عند امرىء من خليقةٍ وإن خالها تخفى على الناس تُعلَمَ(٣)

وهكذا يتحفنا زهير بخالص تجاربه وكان صاحب تَعَمُّل وروية وتهذيب، وقد سمى الرواة مطولاته بالحوليات لما رأوا فيها من جهد كما سموا زهيراً والحطيئة وأضرابها (عبيد الشعر) لما شعروا عندهم من طول الثقات والتنقيح والتجويد والتحبير وقد سمع عمر بن الخطاب بيته:

فـإنَّ الحـقَ مقطعُه ثـلاثٌ يمـينٌ أو نفـار أو جِـلاءُ(٤)

فأعجب به وتعجب من صحة القسمة وقال: لو أدركته لوليتهُ القضاء لحسن معرفته ودقة حكمه(٥)، كما أعجب بشعره فقال عنه:

"زهير شاعر الشعراء لأنه لا يعاظل في الكلام وكان يتجنب وحشى الشعر ولم يمدح أحداً إلا بمافيه"(٦).

١- لا يتجمجم: لا يضطرب.
٢- يزد: يدفع، ومن يظلم الناس: من انقبض عنهم وكف يده عن الامتداد إليهم رأوه مهيناً ضعيفاً فاستطالوا عليه وظلموه.
٣- خليقة: طبيعة.
٤- أى يميناً أو منافرة إلى حاكم يقطع بالبينات أو جلاء وهو برهان يجلو به الحق وتتضح الدعوى.
٥- الصناعتين للعسكرى: ص٣٤٢، ط الحلبى.
٦- العصر الاسلامى: شوقى ضيف، ص٣٢٦.

والحق أنى مهما تحدثت عن شاعرية زهير فلن أوفيَهُ حقَّه من بيان مقدرته التصويرية وكأنه الثمرة النهائية للجهود الفنية التى أودعها الجاهليون أشعارهم، فهو من جهة قد صقل أسلوبه إلى أبعد غاية من الصقل ومن جهة ثانية عنى بموسيقاه وألحانه فلا شذوذ فيها ولا نشاز ومن جهة ثالثة فقد استتم فن التصوير بفرعيه من التشبيه والاستعارة.

الاعتذار: وهو درء المرء التهمة عنه والترفق فى الاحتجاج على براءته منها واستمالة قلب المعتذر إليه واستعطافه عليه.

بيئة الاعتذار وسبب ندرته قديماً: نشأ الاعتذار فى ظل المديح منذ تكسّب الشعراء بمدائحهم فى أواخر العصر الجاهلى، ولما كان فى الاعتذار مذلة للمعتذر ومظنة الكذب والضعف قلّ فى الجاهلية هذا الغرض ولا سيما عند العربى الذى يقطن البادية، إذ رأى فيه مظهراً من مظاهر الخنوع والاستلام، ولما كان هذا يتعارض مع أنفته وكبريائه وكرامته ندر أن وجدنا بدوياً يعتذر، وقد ورد قديماً إياك ومايُعتذر منه.

فلما طأطأ العربى فى بعض الحضر رأسه تحت إغراء المنح والعطايا وجرى لاهثاً وراء الملوك والأمراء مقدماً بين يديه تملقه ونفاقه فى صورة مدائح يشترى بها مايجود به عليه من المال ... عندئذٍ ضاعت قيمة الأنفة بين ماضاع فى غمار حياته الجديدة فلم يجد فى الاعتذار ماكان يجده البدوى فى باديته وحرَص على أن يفتن فى الوصول إلى قلب سامعه طلباً لرضاه ...

ومن المسلمات التى شاعت بين المشتغلين بالأدب أن النابغة الذبيانى هو رأس فن الاعتذار ومفتض بكارته ولكنَّ هذا الحكم يحتاج إلى مراجعة، وأرى - إن أردنا تصحيح تلك المسلمة أن النابغة سلك مسلك أستاذه عدى بن زيد الذى سبقه، وتلك قضية تحتاج إلى بحث مستقل.

ومن بديع اعتذارات عدى بن زيد للنعمان بن المنذر قوله وهو فى سجنه:

ألا مَن يبلغُ النعمان عنِّى   وقد تُهدى النصيحةُ بالمغيبِ
أحظِّى كان سلسلةً وقيداً   وغِلا والبيان لدى الطبيب
أتاكَ بأننى قد طالَ حبسى   ولم تسأم بمسجونٍ حريب(١)
وبيتى مقفرٌ إلا نساء   أرامل قد هلكن من النحيب
يبادرنَ الدموعَ على عدِيٍ   كشنٍ خانَه خرزُ الربِّيب(٢)

فبعد أن أعلن عن إهمال النعمان له فى سجنه وعدم المبالاة به عاد ليحرك فى نفسه الإشفاق فوصف فى إنكسار ما آل إليه بيته بعد غيبته ثم عاد ثالثة يرجو الصفح عما قد يكون أخذ عليه ويعلن عن تنازله لما أصابه من ظلم وضر:

فإن أخطأتُ أو أوهمتُ أمراً   فقد يَهم المصافى بالحبيبِ
فإن أظلِم فقد عاقبتمونى   وإن أُظلم فذلك من نصيبى

١- الحريب: المسلوب ماله.
٢- الشن: الخلق من كل آنية صنعت من الجلد والربيب: المصلح.

فهل لك أن تدارك مالدينا ولا تغلب على الرأى المصيب

فإنى قد وكلتُ اليوم أمرى إلى ربٍ قريبٍ مستجيب

ونلاحظ على المعتذر دائماً أن عاطفة الخوف تتداخل مع عاطفة الشكر والرجاء وفى الأبيات المذكورة نرى الشاعر المصور البارع الصادق الأصيل الذى يمتح من نفس شاعرة.

* * *